

عبد الله بن مرزوق القرشي

لعلهم سكروا

قراءة تفكيرية في آيات الكتاب العزيز



الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

جميع الحقوق محفوظة

دار وجوه للنشر والتوزيع
Wojoo Publishing & Distribution House
www.wojoooh.com



المملكة العربية السعودية - الرياض
☎ الهاتف: 4562410 ☎ الفاكس: 4561675
☎ للتواصل والنشر:
info@wojoooh.com
www.facebook.com/wojoooh
@wojoooh1

لعلهم يتفكرون
عبدالله القرشي

ح/ عبدالله مرزوق فاحس القرشي، ١٤٣٥ هـ.
مهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرشي، عبدالله مرزوق فاحس
لعلهم يتفكرون. / عبدالله مرزوق فاحس القرشي - الرياض،
١٤٣٥ هـ

١٤٢ ص... مسم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٤٧٥٩-٥
١- القرآن والعلم ٢- القرآن - الاعجاز العلمي ٣- التفكير
أ. العنوان
ديوي ٢٢٩،٤٥ / ٣٣٧٤ / ١٤٣٥
رقم الإيداع: ٣٣٧٤ / ١٤٣٥
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠١-٤٧٥٩-٥

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب؛ أو نقله في أي شكل أو وسيلة،
سواء كانت إلكترونية أو يدوية أو ميكانيكية، بما في ذلك جميع أنواع تصوير المستندات بالنسخ، أو التسجيل أو التخزين، أو أنظمة الاسترجاع، دون
إذن خطي من المؤلف بذلك.

No part of this publication may be
reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means,
electronic, manual, mechanical, photocopying,
recording, or otherwise without prior written permission of the author.



المقدمة

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)»

[النحل: ٤٤]

اللهم لِيُكَ وسعديك !

سأحاول مَرَّةً بعد أخرى أن أتقرب إليك يارب، بعبادة (التفكير) في آياتك، وعظيم بيانك.

اللهم إن أخطأتُ فاغفر لي خطيئي، واجبر لي زللي، وإن أصبتُ فتقبله مني وبارك لي فيه !

اللهم إني أشكو إليك ذنوبي، وتفريطي في أمري، اللهم اجعل لي من
التفكر في كلامك عفواً وغفراناً، وامحُ به خطيئتي، وارفع به درجتي،
واكتب لي حبك وقربك، واقبلني في عبادك الصالحين !

اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك؛ وقد تركنا الرّوءاء في كلامك، ونحن
نُهِيم عنه ظمأً وعطشاً !

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» وستلحقه
أجزاء أخرى - بإذن الله- . وهو قراءةٌ تفكيرية في آيات القرآن الكريم،
متعلقة بالتفكير والمنهج، والدعوة والإصلاح، وموضوعات أخرى.
وكم في هذا القرآن من المعاني والآفاق والأسرار لا يصل إليها المؤمن
بغير التفكر، ومهما تكاثرت وتتابعت كتب التفسير، فإنه لن يُحيط المفسر
المحدود في علمه وعقله بالنص الرباني الخالد.

داخل هذا النص معانٍ عظيمة، وعلينا أن نعمل أبداً على استنطاقها
والاستهداء بهديها. هذه الحروف المقدسة ظلت شامخةً فوق الزمان
والمكان والأجيال، وظلت حركة العلوم والاكتشافات الحديثة تدفع
بالجديد؛ فترتد كل الكتب القديمة أمام كشوفاتها وحقائقها.. إلا
القرآن، فإنهم لن يجدوا حرفاً واحداً يخالف اكتشافاً جديداً.

إنّ في واقعنا وتفكيرنا وأفكارنا ومنهجنا عللاً وأدواء، وفي القرآن

شفأؤها ودواؤها، لو كانوا يفقهون.

أين العقول المؤمنة التي تتبَلَّ لربها في محراب التفكُّر؟! حين يدخل العقل متواضعا لعالم القرآن، كأنها يلبس إحرامه الأبيض، ويجول بتدبره وتفكيره في هذا العالم الطاهر، يستشفي لأدوائه، ويستهدي لحيرته وضلاله. «يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم».

القرآن لا يكبر عليه أحد، والمؤمن يجلس في رحابه كما يجلس التلاميذ الصغار في الكتاتيب، وهدايات القرآن أقرب لمن سجد عقله وقلبه بين يدي ربه.

لقد التزمتُ في هذا الكتاب بمراجعة التفسير في كل آية أريد أن أتفكَّر فيها، ثم عرضت ما كتبته على جماعة من أهل العلم والفضل، زيادة في الطمأنينة بألا أكون قلت في كتاب الله بغير علم، وغاية ما أريده أن يكون خطأ الكتاب مغموراً في صوابه، وأن أكون معذوراً في الخطأ لا مأزوراً.

وهذا الكتاب بين يديك أخي القارئ، أنتظر قراءتك وتقييمك، ونقدك وتوجيهك؛ حباً في القرآن؛ وخدمةً لمعانيه الكريمة.

وهنا شكرٌ واجبٌ لصاحب الفضل والإحسان سبحانه، فله الشكر من قبلُ ومن بعد، على نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة.

والشكر بعد ذلك لجميع السادة الفضلاء، الذين أكرموني بوقتهم
وعلمهم، وحبهم ونصحهم، وعونهم ومساعدتهم. لهم جميعاً أصدق
الشكر والثناء، ولهم في سجودي خالص الدعاء، ولست أجد ما يكافئ
فضلهم غير الدعاء، والله هو الغني الكريم.

المؤلف

عبدالله بن مرزوق القرشي

إيميل : a0503704440@gmail.com

تويتر : @aabualmonther

الوقفه الاولى

في نظام التفكير

تصحيحُ (التفكير) أهم من تصحيح (الأفكار)

بين الأفكار والتفكير:

ذهبت كثيرٌ من الجهود والأعمار في سِجال (الأفكار)، وهي على أهميتها وخطورتها أقل تأثيراً وأهميةً من (التفكير) ذاته؛ فإن التفكير هو النظام الذي يتعامل مع هذه الأفكار، وهو المعيار الذي يحكم عليها بالقبول أو الرد، وهو المعنويُّ بطريقة التعامل مع الفكرة الصحيحة وطريقة استثمارها. نحن بحاجة إذن إلى حديث عن (نظام التفكير) أكبر من حاجتنا للحديث عن الأفكار، (وإذا ارتفع البحر ارتفعت معه جميع السفن).

ماذا ستنتفع المعلومات الصحيحة إذا استقبلها نظامٌ في التفكير خاطئ؟! وماذا ستضر الخرافات إذا اصطدمت بنظامٍ دقيقٍ في التفكير، وآلية مهنية في التصديق والتكذيب؟!

لقد أنقذ (نظامُ التفكير الصحيح) فتيةً صغاراً، كان كل ما يملكونه أمام تراكمات الخرافة، وسلطان العادة قانوناً فكرياً صحيحاً: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُوا عَلَيْهِمُ الْبُتُونُ﴾ [الكهف: ١٥].

المطالبة بالدليل والبرهان كشفت لهؤلاء الفتية الزيف المستبدَّ بعقول

قومهم، وأنقذتهم -بفضل الله- من عدد هائل من الخرافات والأفكار الخاطئة، والإسلام كما جاء بالحقائق والأفكار الصحيحة، فقد جاء كذلك بتصحيح التفكير والنظام العقلي.



صراع العقل والنقل:

لقد بالغ بعض الناس في تعظيم الدليل النقلي، والتهوين من شأن الدليل العقلي، حتى أصبح العقلُ تهمةً وريبةً! وربما كان ذلك بسبب غلو آخر في تعظيم العقل، وممارساته الخاطئة على حساب النقل الصحيح، ويبقى الحقُّ متميزاً عن الغلاة، والحق لا يتعارض، إنها يتعارض وَهْمُ سَمِّهِ عقلاً، أو كذبُ سَمِّهِ نقلاً.

وحين نعرض على أحدهم الدخول إلى الإسلام، فكيف يقبلُ الإسلام ويرفض بقية المذاهب والأديان؟ ما لم تكن هناك قواعد عقلية محايدة، تكشف أن الإسلام هو الدين الحق، وأن ما عداه هو الباطل!

إن عدم احترام هذه القواعد العقلية والفطرية يمنح الحق لكل أحد أن يدَّعي صحة دينه ومذهبه، ولن يبقى معيارٌ محايدٌ يكشف صحة الدعوى أو زيفها.

وفي القرآن خطاب عجيب لهذا الإنسان بعقله وفطرته وعاطفته، حتى إن الآية الواحدة منه قد تكشف للإنسان الهداية، وتُخرجه من العمية، وتصل إلى أعماق عقله وفطرته، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. يقول رحمه الله: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً.

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حدثوني عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) [الطور: ٣٥-٣٧]، كاد قلبي أن يطير.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق، عن الزهري.

وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

الحق لا يتعارض:

إن التفكير الصحيح لا يقبل بعض الحق ويرد بعضه، ولا يضرب بعض الحق ببعض، فكما أنه لا يجوز أن يضرب الوحي المنزل بعضه ببعض، فإنه لا يجوز أن يضرب الوحي المنزل بحقائق الكون وسننه ونواميسه، فالوحي من عند الله، والكون ونواميسه خلق الله، والحق لا يتعارض، مثال ذلك: ما نراه من تفوق الكفار في قوتهم واقتصادهم ونظامهم ورفاهيتهم، فربما فهم بعض الناس أن كفرهم يمنهم من ذلك، فإما كابر الواقع، أو شك في الوحي، ولم يعلم أن من سنن الله في خلقه العدل، فهو يؤتي في هذه الدنيا من أخذ بأسبابها، وسعى لها سعيها، والإيمان بالله وحده لا يكفي لأن يجعل أتباعه أكثر قوة، أو أغنى مالا، أو أحسن نظاماً.

وإذا فهم الإنسان من الوحي ما يعارض سنن الكون ونواميسه الثابتة؛ فعليه أن يعود ليتأكد من فهمه للوحي، وفهمه لنواميس الكون، فلا بد أن خطأ ما وقع في فهمه لأحدهما، وقد نص القرآن على أن الدنيا يؤتيها الله لمن طلبها بصدق: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، [هود: ١٥]، ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُنَّوَلَاءَ وَهَتُوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا

كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

إذن فعقل المسلم ونظامه في التفكير يجب أن يستوعب حقائق الوحي، ونواميس الكون، وأن يستفيد منها علماً وبصيرة، وألا يفرض التعارض بين أمرين مردُّهما لله وحده، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأعراف: ٥٤]



لولا يأتون عليهم بسيلطان بين:

حين يغيب (نظام التفكير) يصبح العقل مرتعاً للخرافة، ومجمعاً للتناقضات، ومن المؤسف أن التوحيد الذي جاء حرباً للخرافة، أصبح بعض أتباعه لا تتحرج عقولهم من قبول خرافات دينية وسياسية ومجتمعية؛ ذلك أنهم أخذوا (فكرة التوحيد) ولم يأخذوا (نظام التفكير الذي فرضه التوحيد)، ولذلك؛ أصبحت هذه العقول تقبل الأفكار والأخبار دون أن تُعرِّضها لهذا القانون الصارم: ﴿أَتُؤْتِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]، ﴿لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾، [الزخرف: ١٩]، ﴿أَمْ أَمَاتْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّهُمْ يَعِدُوا الظَّالِمِينَ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾، [غافر: ٤٠].



للضلال بابان:

إن القرآن يُعلّم أتباعه أن التصديق مسئولية، والتكذيب -كذلك- مسئولية، وللضلال بابان: تكذيب الحق، وتصديق الباطل. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، ومن اعتقد أن مع الله إلهًا آخر ونحو ذلك فقد افترى على الله كذبًا. يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «يعني: ممن اختلق على الله قيل باطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه -كما قاله المشركون من عبدة الأوثان- أو ادعى له ولدًا أو صاحبةً، كما قالته النصارى». فنظام التفكير الصحيح يتوثق فيما يصدق، ويتوثق فيما يكذب، ولا يصدق إلا بنظام، ولا يكذب بغير نظام.

العقل المتناقض:

أما التناقضات، فإنك تعجب من قبول الفكرة وما يناقضها، وكأن الأفكار في بعض العقول متباعدة وليست متلازمة، فيمكن أن يقبل الفكرة وما ينقضها في وقت واحد!

لقد رفض عقلُ المشرك فكرةَ البعث والمعاد في ذات الوقت الذي قبل فكرةَ خلقه أوّل مرة، دون أن يشعر بالخيبة والتناقض، وكشف القرآنُ هذه المشكلة في بيان عجيب جمع بين قوة الإقناع واختصار العبارة: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَءِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۚ ﴿٦٧﴾﴾ [مریم: ٦٦-٦٧]، وفي موطن آخر: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

عقول أهل التوحيد لا ينبغي أن تغفل عن التناقضات، ويجب أن تحافظ على صحة نظامها وتفكيرها وأطرافها.

يستبدلون الهوى بنظام التفكير:

وهناك مشكلة كبيرة حين يصبح القبول والرفض للأفكار والأخبار يخضع لمنطقٍ آخر لا يحترم (نظام التفكير)، بل هو يقبل ويرفض بناء على حبه وهواه، أو بناء على موافقته لآبائه أو شيوخه أو مجتمعه، تلك مشكلة خطيرة تسمح لصاحبها أن يقبل الشرك الأكبر دون أن يشعر بضلاله وإشكاله.

عقل المشرك يستتكف من قبول الحقائق؛ لأنه لم يعهدها عند آبائه الأولين، ثم يسمح للخرافات أن تملأ عقله؛ لأنها من تراث قومه وآبائه ! وفي الحوار القرآني بين إمام الموحدين، إبراهيم -عليه السلام-، وقومه ما يكشف هذه المعضلة: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤].

كان إبراهيم يناقش الأفكار بنظام التفكير، وقومه يقبلون ويرفضون بناء على منطقٍ آخر، وهو منطق العاطفة والهوى، وموافقة آبائهم الأولين، وكل من التزم بنظام التفكير الصحيح فهو تابعٌ في ذلك لإبراهيم، وكل من جنح إلى الهوى والتقليد الأعمى فإنه يشابه في ذلك قوم إبراهيم.

التفكير والهوى: غالب ومغلوب:

إن نظام التفكير كما يتعامل مع الأفكار والأخبار العقدية الكبرى، يتعامل مع الأخبار والأفكار اليومية، ولذلك؛ تنحسر الشائعات والأكاذيب حيث يعمل هذا النظام، وتشيع الأغاليط حين يسترخي ويضعف النظام، وفي مملكة النبي الصالح سليمان لم يتخلف هذا النظام، حتى مع الحماس للتوحيد، والغيرة على دين الله من جريمة الشرك؛ فقد جاء الهدهد منتصرًا للتوحيد، متوجعًا مما رآه من الشرك: ﴿أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتَىٰ بَقِينِ ۖ﴾ (٢٢) إني وجدت امرأة تملِكُهم وأوتيت من كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۖ﴾ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۖ﴾ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۖ﴾ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ [النمل: ٢٢-٢٦].

ورغم هذه الغيرة على دين الله، والانتصار لشأن التوحيد، بقي نظام التفكير والتعامل مع الأخبار قائمًا لا تلغيه العاطفة، فقال له نبي الله سليمان: ﴿سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

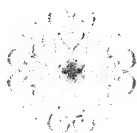
اختبارٌ صعبٌ لنظام التفكير حين يأتي الخبر كما نهوى؛ فأكثر الأخبار الكاذبة نقبلها حين نهواها، والأكثر قربًا من أئمة التوحيد هو من يحافظ على نظام تفكيره فيما يحب ويكره، ومن يبحث عن البينة في تصديقه وتكذيبه، ومن ينتصر نظامه في التفكير على عاطفته وهواه.

احترام الدليل:

نظام التفكير الصحيح يحترم البينة والدليل أيًا كان مصدره، ويوسع مداركه ليأخذ العظة والعبرة حيثما كانت، فالحب ليس شرطًا في القبول والاستفادة، والكره ليس مانعًا من الاستماع والاختيار، وفي يوم عاشوراء قال رسول الله ﷺ كلمته النورانية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ؛ فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ».

وقد وجدت بعضهم يتحرّج من ذكر الشهادات والثناءات على

رسولنا الكريم، بلسان الكفار والمخالفين، ويرى أن في ديننا ودلائلنا غُنية وكفاية. لاشك أن دين الله لا يحتاج لشهادة أحد من الكفار، ولكن للكلمة الصادقة المحايدة تأثير خاص، ولا يمنع أن يستفيد منها المسلم دون غلو ومبالغة، وفي قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [الأحزاب: ١٠]، أصلُ على الاستشهاد بكلامهم، فقد جعل لانتسابه هذا منزلة خاصة في شهادته.



أولم يهد لهم:

طرائق الهداية كثيرة ومتنوعة، ومن أنار الله بصيرته، فتح له أبواباً عديدة للهداية، ولا يُشترط أن تأتي الهداية بكلام عربي مبين، بل قد تأتي الهداية عن طريق العجاويز والجمادات، المهم أن يكون نظام التفكير دقيقاً لا يقبل باطلاً، ويَقْظاً منفَتِحاً على ألوان الهدايات.

وفي قصة ابني آدم، بعدما قتل قابيل أخاه هابيل، ولم يكن يعرف سنة الدفن: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَهُ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]، وتأمل هذا التصريح بأن الله هو الذي بعثه، والتصريح بأن الهدف من ذلك تعليمه وهدايته كيف يوارى سوء أخيه! قال ابن

جدير الطبري - رحمه الله - : « فأحب الله تعريفه السنة في موتى خلقه، فقيّض له الغرائين اللذين وصف صفتها في كتابه ».

لقد كان هذا الغراب وصنيعه طريقاً للهداية والاستفادة، وعقل المسلم وتفكيره يجب ألا يعمى عن هذه الدلائل، وألا يُعرض عن أسباب الهداية في وحيه أو خلقه.

وفي الجملادات أسباب للهداية لقوم يتفكرون، فمساكن الذين ظلموا وهي خاوية آيات بينات، والعقل البصير لا يمرُّ على هذه الديار غافلاً مُعرضاً، بل مستيقظاً مستبصراً يرى آياتها، ويسمع مواعظها: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَانِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٦]، فجعل المساكن من أسباب الهداية، واعتبرها من الآيات لقوم يسمعون، وفي موطن آخر يقول الله: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَانِهِمْ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ [طه: ١٢٨]، فأصحاب النهي والعقول البصيرة لا يمرون على هذه الجملادات دون هداية واستفادة.

إنصاف الرأي الآخر:

سماع الرأي الآخر ضرورة في التفكير الصحيح، ولا ينبغي أن يجارب الرأي الآخر إلا الخائفون من سطوة الحق على مواقفهم الهشة.

الحق لا يتضرر من الرأي الآخر، بل يزيده إشراقاً وبيانا، أما الرأي الضعيف، فإنه يطلب الحياة والبقاء بمحاربة الآراء الأخرى، وحجبها عن الناس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

هل يليق بعد ذلك أن يخاف أهل الحق من الرأي الآخر؟! هذا لا يعني تتبع الشبهات في مسارها وجحورها، بل سماع الآراء الظاهرة الحاضرة حول قضية معينة، سماع الرأي الآخر إما أن يزيد الحق وضوحاً، أو يبين بعض الجوانب التي حصل فيها نقص أو خلل، وربما يتبين أن الحق بخلاف ما عهد الإنسان عليه نفسه وقومه.

إن كل حقٍّ تأتي معه دعاية تشوه الحق وأهله، وما لم يحترم الإنسان آلية الرأي الآخر وضرورة سماعه، فإنه سيحرم نفسه كثيراً من الحقائق والمعارف.

الباحث عن الحق لا يمكن أن يستوفي بحثه دون أن يسمع الرأي الآخر.

في بعض الأحيان لسنا أمام حق وباطل، بل أمام مواقف اجتهادية، ولو كان أصحابها من الإسلاميين، مقابل آراء اجتهادية، ولو كان أصحابها منسويين للعلمانية ونحوها، هنا يكون الرأي الآخر أكثر ضرورة؛ فإن غياب الرأي الآخر يغيب معه التطوير والاستدراك، وغيابه يعطي آراء البشر واجتهاداتهم منزلة فوق منزلة البشر.



العلة لازم المعرفة:

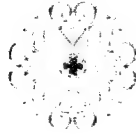
المعرفة المعللة لا يستغني عنها العقل الصحيح، وفي قصة موسى مع الخضر درس وعبرة؛ فإن موسى قد ذهب إليه بتزكية ربانية لعلمه ورحمته: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقد علم الخضر أن موسى لا يطيق صحبته؛ فإنه سيرى أفعالاً لا يعرف سببها وعلتها، وموسى من أحرار العالم وأذكيائهم، وعقله لا يطيق أن يقتنع دون حجة، أو يقبل بدون علة: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

سبحان الله ! يعلم الخضر أن عقل موسى لا يستطيع أن يصبر على ما لم يُحِطْ بخبره وسببه وعلته، لا تنس هنا أن الذي دلَّ موسى على الخضر هو الله، وأن موسى خير من يؤمن بالله، وقد حاولَ جَهْدَهُ أن يقبل دون سؤال، وأن يصبر على ذلك، ولكن غلبته خِلَقَتُهُ وفطرته السويّة، وربّه يعلم بذلك ويرضاه، قال موسى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩]، وقد اجتهد موسى -عليه السلام-، وفي كل مرة يندم على سؤاله ويعزم على ألا يعود، حتى انتهى به الأمر إلى عذره في ترك صحبته: ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦].

إن إمام الموحدين والمؤمنين لا يصبر عقله على معرفة غير معلّلة، مهما حاول وصابر، ومن أراد أن يصبر الناس على معرفة غير معلّلة، فقد أرهقهم من أمرهم عسرًا، ولهم في موسى أسوة حسنة إن تركوه وفارقوه.

إن موافقة المتربي لأستاذه دون دليل وحجة هو من نقص الحرية والعقل، وليس من زيادة الأدب والفضل، ومثل ذلك لا يُحتفل به.

ذاك الذي لا يقبل إلا بالحجة أكثر ثباتا مع الأيام، وأقوى مراسا مع الأعداء.



سلطة التفكير الجمعي:

للعقل الجمعي تسلط على عقل الإنسان، ومن الصعب أن يفلت الفرد من قبضته وهو يعيش وسط قومه وجماعته، ولذلك؛ ارتبط السجن بكثير من المراجعات، فقلماً تجد مقدماً في قومه يدخل إلى السجن، ويصبح في خلوة مع عقله الخاص بعيداً عن تسلط العقل الجمعي، إلا وهو أمام مراجعات وأفكار جديدة، كان محجوباً عنها بسلطة التفكير الجمعي، فأصبح يرى وحده ما لم يكن يراه داخل الجمهور والجماعة.

لا بد للإنسان من الخلوة بنفسه مختاراً غير مجبور، خلوة في مسجده، أو سفره، أو نحو ذلك؛ يعيد النظر في خياراته وقراراته المهمة، ويحاذر من تسلط العقل الجمعي وحجابه. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتْنًى وَفَرْدَى ثُمَّ نَنْفَكُوا﴾ [سبا: ٤٦].

التفكير مطلوب، وآفته حين يُحجَّب بالعادة والجماعة، والخلوة بالنفس أو بمن هو في مقام النفس، تمنح العقل القدرة على التفكير والبصيرة، وتسمح للرجل أن يستثمر طاقته في التفكير والتفكير، واختبار القنوات، وتحديد الخيارات، وتصحيح الطريق والمسار.

لقد كرر المشركون التهمة لرسول الله حتى أصبحت راسخة في العقل الجمعي، ولن يُعرَّض هذه التهمة للاختبار الحقيقي إلا التفكير، ولا يساعد التفكير مثل الخلوة بالنفس أو من هو في مقام النفس: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِّ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

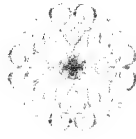
إن نظام التفكير عالم آخر غير عالم الأفكار، وهو بحاجة إلى اهتمام أعمق، ووقت أطول، وكثير من المواقف الخاطئة تعود لتفكير خاطئ، فنخطئ حين نركز على العَرَض ونترك المَرَض، ونشتغل بالنتيجة وننسى السبب، ونخطئ أيضا حين نتحدث في الأسباب، ثم نخترلها في الخيانة أو مثلها، نريح عقولنا من عناء البحث والتحليل، ولكن لا نريح الحقيقة، ولا نكتشف الموقف.

وراء أفكارنا ومواقفنا الخاطئة نظامٌ في التفكير قادنا لهذا الخطأ، وما لم نتدارك هذا النظام بالتصحيح والمراجعة، فسيظل الخطأ يعود إلينا من جديد.



الوقفه الثانية

في الدعوة إلى الله



وداعيا إلى الله:

يكاد بعضهم أن يستهين بوصف «الداعية»، ونسي أن سيد الخلق أجمعين هو إمام الدعاة، وصفه ربه بذلك: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعياً إلى الله ﴿الاحزاب: ٤٥-٤٦﴾.

فالدعوة إلى الله شرف عظيم، والداعية إلى الله يمضي في طريق يرفع لواءه سيد الخلق أجمعين ﷺ.

هذا التعظيم اللائق بالدعوة والداعية يوجب علينا اهتماماً أكبر في تأهيل الدعاة، وإكرامهم، والعناية بهم، وهذا التعظيم للدعوة يوجب على الدعاة - كذلك - أن يتذكروا دائماً أنهم دعاة إلى الله، فيجب أن يكون ذلك كما يحب الله، فالدعوة ليست لما يحب الداعية ويهوى، بل لما يحب رب العالمين.

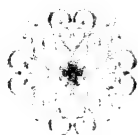
حين أدعو الناس لبعض أحكام الشريعة، وأغفل في دعوتي ما هو أعظم وأجل عند الله منها، فهل هذه دعوة لما يحب الله، أو لما يحب الداعية؟!

إن نظرة سريعة لطبيعة الموضوعات المكررة عند الدعاة اليوم تُبين أنّ الأمر بحاجة إلى قدرٍ من المراجعة؛ حتى يصبح اهتمام الدعاة

وموضوعاتهم متوافقة مع أحكام الشريعة، وتفاوتِ منازلها في الأهمية.

كلما مررت على اللوحة الدعوية المعلقة على أبواب المساجد، أفرح بهذا الجهد المبارك، وألاحظ كيف تضخمت بعض الأحكام الشرعية المهمة على حساب ما هو أكبر أهميةً منها.

ومن تعظيم الله، وتعظيم الدعوة إلى الله: أن نجعل أولويات الدعوة كما هي في الوحي الشرعي، وأن نراجع هذا الأمر مرة بعد أخرى.



القلب لا يمتلئ بشيء إلا فاض به على من حوله:

الدعوة للشيء فرعٌ عن حبه والتعلق به.. هكذا هو الإنسان، لا يحب شيئاً، ويتعلق به، ويتصف به، إلا ودعا إليه، ولذلك تجد لكل مذهب وملة، دعاة يدعون ويُرغَّبون، حتى البُخل، تجد الأمرين به، والداعين إليه: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧]، فإذا خَفَت همُّ الدعوة عندك، فاعلم أن ذلك لضعفِ أصاب قلبك؛ فإن القلب لا يمتلئ بشيء إلا فاض على من حوله؛ دعوة إليه، وترغيباً فيه.

صرفهم إليه:

الدعوة إلى الله اصطفاء واختيار، والخلق كثير، والدعاة إلى الله قليل،
وجديرٌ بالذاكر لرَبِّه، والمعادِ إليه، أن يجعل في دعواته طلب التوفيق
والهداية والاصطفاء لهذا الشرف العظيم.

وإذا صرفك الله للدعوة إليه، فزت وربحت، وقد صرف الله بعض
الجن لرسوله محمد ﷺ، صرفهم إليه؛ حتى يستمعوا القرآن، ويدعوا
قومهم إليه، وما أعظم نعمتهم، وأجلّ مَنِّهم بهذا الذي صُرفوا إليه:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا
أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

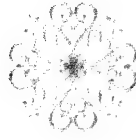
قلبه خلّو من اليأس:

الداعية إلى الله لا ييأس من هداية أحد، أيّاً كان بُعده وفُجوره، عليه الدعوة، وعلى الله الهداية.

انتظر موسى -عليه السلام- يومَ الزينة، حيث التحدي والحشد الهائل؛ حتى يلتقي موسى مع كبار السحرة وأساطينهم. هو يدعو إلى الله، وهم يدعون إلى فرعون، هو يدافع عن الحق والحقيقة، وهم ينافحون عن الباطل والخرافة، ومخبوءٌ في القدر أن أول المؤمنين بموسى: هم ألدّ أعدائه، الطبقة الأسوأ في المجتمع، السحرة الكفرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١].

الداعية إلى الله لا يستثني أحداً من دعوته، ولو كان خصمه ومعاديه، ولا ييأس من أحد، ولو كان الأسوأ والأبعد.

إن إيمان السحرة، وموقفهم المدهش في صبرهم وتضحيتهم يعطينا درساً كافياً في عدم اليأس من هداية أحد.



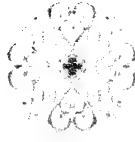
فهي أسوأ البيوت مسارب للنور:

في تجارب الدعوة المعاصرة تنتشر الدعوة في أماكن دون أخرى، وبينما تستجيب بعض الشرائح المجتمعية للدعوة إلى الله، تبقى بعض البيئات بعيدة بعض الشيء.

مع الزمن يتسرب شعور بأن تلك البيئات بعيدة عن الدعوة والتدين، وربما يزهد فيها أهل الدعوة.

حقائق التاريخ تثبت أن أسوأ البيوت يوجد فيها مسارب للنور، وأنه لا يجوز أن نعرض أو نياأس من بيت واحد، فضلاً عن بيئة أو شريحة، مهما كان انتهاؤها، ومهما كانت تجاربها السابقة مع الدعوة. لقد دخل النور بيت الملك الزعيم المحارب للرسالة والهداية، في الوقت الذي كان يحشد أجناده؛ ليحجب النور عن مملكته! فأمنت زوجه، وأصبحت مثلاً للذين آمنوا: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [التحریم: ١١]، وآمن رجل يكتنم إيمانه، وكان مشغولاً بالدعوة والإصلاح من داخل القصر، بما يناسب حاله ومكانه.

إن بعض الانطباعات التي نلقها على بيوت أو بيئات معينة هي من عمل الشيطان، وبعد بيت فرعون، لا ينبغي أن يياأس الداعية من أي بيت آخر.



يا ليت قومي يعلمون: (رحمة في قلبه):

الدعوة إلى الله حبٌّ وعطاء، قبل الدعوة هناك تجربة إيمانية، يذوق الداعية حلاوتها وهدايتها، ثم يحب لغيره أن يشاركه هذه الهداية، فيظل يدعوهم؛ رحمة بهم، وحباً في هدايتهم.

لقد كان الداعية إلى الله في سورة (يس) مثلاً عجباً في هذا الحب، ظل يدعو قومه إلى الله، واتباع المرسلين، منذ أن جاء من أقصى المدينة يسعى، وحتى مات مقتولاً مظلوماً، وظل يحب لقومه الهداية، منذ أن كان حياً بين ظهرانيهم، وحتى قيل له ادخل الجنة: ﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

ما أعجب هذا القلب الذي لا يجد الحقُّ إليه سبيلاً!

آذوه، وحاربوه، وقتلوه ظلماً وعدواناً، وظل قلبه مشغولاً عن الأحقاد بتمني الهداية لهم.

أخطر شيء على الداعية أن يسمح للأحقاد أن تستوطن قلبه. الدعوة حب، والحب لا يجاور الأحقاد ولا يساكنها.

ومن عجب أن يستدل الداعية على قسوته بدعاء نوح على قومه، ونسي

ما كان قبل هذا الدعاء من قرون متطاولة، يدعوهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً. من تأسى بنوح -عليه السلام- في طول دعوته (لهم) من قبل، يصح له أن يقتدي به في دعوته (عليهم) من بعد. نبي الله نوح لم يبدأ بالدعاء على قومه، بل بالدعاء لهم، ولم يدع عليهم إلا بعد حياة مديدة من الدعوة والرحمة، وظلت بقية من هذه الرحمة حتى جاء الطوفان، وابنه كافر معرض، وهو يقول له: ﴿يَبْنِيْٓ اَزْكَبَ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، وبعد هلاكه وغرقه، ظلت رحمته في قلبه، ودعا ربه حتى نهي، واستجاب -صلى الله عليه وعلى نبينا محمد-.

مسجد الحي:

هو نورُ الحيّ، ومصدر بهجته ورحمته، هو البيت الذي يجتمع فيه أهل الحي خمس مرات في اليوم واللييلة، ليس لأحدهم هذا البيت، إنما هو بيت الله الرحمن الرحيم! هنا يجب أن يكون الحب والتواصل والرحمة، ويجب أن يكون المسجد للجميع، حتى لذلك الصبي مع أمه، وحين يصرخ الصبي ويبكي، ينبغي أن يحرك هذا الصراخ رحمة الإمام في قلبه؛ فيخفف في صلاته من أجل الصبي وأمّه، ولا ينبغي أن يحرك هذا الصراخ قسوة

الإمام في قلبه؛ ليوبخها ويقرعها بعد الصلاة، وإذا شاء هذا الصبي أن يرتحل الإمام، فينبغي أن يترث في الصلاة؛ من أجل هذا الصبي، دون تعنيف وتوبيخ .

المسجد لنا جميعاً: لرجالنا، ونسائنا، وأطفالنا، ومن هنا تبدأ حكاية الحب والتعلق بهذا المكان: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ». والإمام الموفق من عمر بيت الله بما يحبه الله من تواصلٍ ومرحمة، وحب وشفقة.

تعظيم المساجد في عهد رسول الله ﷺ لم يمنع من صراخ الأطفال، ولا لعبهم، ولم يمنع من نوم الكبار، ولا لعب الحبشة، ولا إلقاء الشعر. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه مرّ بحسان ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشدُ فيه، وفيه من هو خير منك. (متفق عليه). وكان عمر وقافاً عند كتاب الله.

المسجد في كل حيٍّ فرصة عظيمة لإقامة الدين، حين نتعامل معه كما تعامل رسول الله، وليس كما وجدنا عليه آباءنا الأولين. إمام المسجد: هو داعية إلى الله في ذلك المسجد، وينبغي أن يغرف لسانه من رحمة قلبه وحبه، وأن يصبر على جماعة المسجد، فخير الجماعات في خير المساجد بعد المسجد الحرام، تركوا خير الأئمة يخطب على منبره، وذهبوا للهو والتجارة، ثم انظر لهذا الرفق والرقي في خطابهم: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ الْبَعْرِو﴾ [الجمعة: ١٧].

بلسان قومه:

قربُ الداعية من قومه أنفع لدعوته؛ فمعرفةُ طبائعهم وتاريخهم ولسانهم وأعرافهم وعاداتهم، ومخالطتهم في غير ما منكر = أجدرُ في التأثير والإقناع :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد يتسلل في المفاهيم الدعوية الرغبةُ في تمايز الداعية عن قومه، والتمايزُ هذا قد يجعله أكثر هيبةً واحتراماً، لكنه يُضعف قربه من قلوبهم، والتأثير عليهم، مع بُعده عن سمت الأنبياء.

إن مخالطة الناس في شئونهم وحياتهم حسنةٌ لا ينبغي أن ينتزه الداعية عنها: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَكْسُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وفكرة التمايز ذهب بها الكفار إلى الغاية، وافترضوا أن يكون الرسول من الملائكة: ﴿ بَلْ يَحِبُّوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاثِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢]، فهذا رأي الكافرين، أما اختيار الله فأمر آخر، اختار سبحانه أن يكون الأنبياء (منهم).

وكثيراً ما ينص القرآن على «الأخوة»: ﴿وَالْإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ونحو ذلك.

إن الدعوة إلى الله تأثير، وفي القلوب مفاتيح التأثير، والقرب منهم، ومشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، وتلمُّس حاجاتهم، وإجابة دعوتهم، أدعى لحبهم وقربهم واستجابتهم.



يَبْلُغُ النَّاسُ بِكُلِّ سَعْيِهِ:

وصول الداعية إلى جمهور الناس وعامتهم هدف واضح، يصل إليه بكل طريق ممكن، فهو يبحث عن الناس ولا ينتظرهم أن يأتوا إليه، فحين قامت المناظرة بين فرعون ونبي الله موسى -عليه السلام-، وطلبه موعداً للتحدي، استثمر ذلك موسى عليه السلام للوصول إلى عموم الناس، قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ صُتْحَى﴾ [طه: ٥٩]. إن هذا الموعد لم يأت اتفاقاً، بل هو لهدف واضح في ذهن الداعية المشغول دائماً بإيصال دعوته وهدايته للناس، ويستثمر كل فرصة في تحقيق ذلك.

لقد كان بالإمكان أن يجري التحدي في قصر فرعون بعيداً عن أعين

الناس، لكن موسى مشغولٌ بالناس، واتخذ من هذا التحدي سبيلاً للوصول إليهم، ومن رسوخ هذا الهدف في قلوب الدعاة إلى الله: ما فعله الغلام المؤمن، وكان ثمن الوصول إليهم قتله، فرحب بقتله في سبيل الله، إذا كان ذلك هو الطريق الوحيد لدعوة الناس وهدايتهم، فقد روى الإمام مسلم في قصة الغلام المؤمن: «فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صُدْغِهِ، فوضع يده في صُدْغِهِ في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ؛ قَدْ آمَنَ النَّاسُ ..».

في بعض الأحيان يوسوس الشيطان للداعية بأن احترام ما يدعو إليه يوجب عليه ألا يذهب للناس في أماكنهم، وأن يقتصر دوره في بيوت الله، ومن كتب الله له خيراً سيأتي بإذن الله، هذا من وسواس الشيطان، والداعية إلى الله لا ينتظر الناس حتى يأتوا إليه، بل يذهب إليهم حيث ما كانوا، ويستثمر كل وسيلة إعلامية وتقنية في تبليغ دعوته، ويسابق أهل

الشر والضلال في الوصول إلى الناس.

ويتعلق بهذا المعنى طريقة الخطاب الدعوي، فهناك خطابٌ نخبوي، وهناك خطابٌ جماهيري، فأيهما أولى وأحسن للدعوة بناءً على هذا الهدف؟

أولاً: لكل خطاب ميزاته وعيوبه؛ فالخطاب النخبوي: جمهوره أقل عدداً، وأكثر أهمية، وأقل تفاعلاً، وأكثر نقداً. والخطاب الجماهيري: جمهوره أكثر عدداً، وأقل وعياً، وأكثر تفاعلاً، وأقل نقداً.

ثانياً: الجماهير محلٌ للدعوة، والنخبة محلٌ للدعوة كذلك، ويجب أن يصل صوت الدعوة لكلا الشريحتين، وأن يصل (بلسانهم) الذي يفهمونه ويتأثرون به.

ثالثاً: أما الداعية المعين، فيذهب حيث يجد مواهبه وقدراته، وكلٌ ميسر لما خلق له، دون أن يزهد أو يزدري الخطاب الآخر، وقليل هم أولئك القادرون على خطاب الجماهير والنخبة في آنٍ واحد: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الجمعة: ٤].

وغني عن الذكر أن جميع الخطابات الدعوية يجب أن تلتزم بمعايير الشريعة، وألا تترك شيئاً منها مسaire لخطاب خاص، أو رغبة في تأثير خاص، فالوصول إلى الناس يكتسب أهميته حين يكون وصولاً صحيحاً، ملتزماً بمعايير الشريعة في الصدق والعدل ونحو ذلك.



وما آمن معه إلا قليل:

بعضهم يحسب أن الحجة وحدها تكفي في كسب القناعة والهداية..
كلا؛ فالهداية اصطفاء ربانيّ، ولا يضير الداعية إذا أدّى ما عليه ألا يجد
استجابة، وله في بعض الأنبياء أسوة حسنة.

لقد جاء الأنبياء إلى أقوامهم بآياتٍ بينات وسلطان مبين، وكانوا
سادة الأخلاق والذكاء والحكمة، ثم لم يؤمن كثيرٌ من أقوامهم حتى
جاءهم العذاب الأليم. هل يملك أحد من الحجج والبيّنات أكثر من
آيات الأنبياء؟! ومع ذلك لم يؤمن كثير منهم. ﴿وَأَنذِنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً
فَقَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

المهم ألا يُقَصِّر الداعية في وضوح حجته، وحسن أخلاقه، ورحمته،
ودأبه على الدعوة والصبر عليها، ثم لا يلزم بعد ذلك أن يستجيب له أحد.



وإن يك كاذباً.. وإن يك صادقاً:

من طرائق الدعوة في أحوال خاصة: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾
 وإن يك صادقاً يُصَبِّحُكُمْ بِعَظْمٍ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴿[غافر: ٢٨].

إن هذا الأسلوب -وما فيه من احتمال- قد يصلح- في بعض الأحوال- أكثر من الأسلوب الجازم والحاسم بصدق الرسالة واليقين بها، وربما يقال: هذا خاص بمؤمن آل فرعون، وما يقتضيه كتمان الإيمان، فالجواب: يكفي اعترافاً بهذا الأسلوب التوافق على أنه مناسب في مثل هذه الحالة، ثم إن هذا الأسلوب قد جاء في غير مؤمن آل فرعون: ﴿وَلِئَا أَوْيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿[سبا: ٢٤-٢٥].

فهذا المنطق المحايد ليس شكاً في صدق الرسالة، بل هو أسلوب آخر في إقناع المدعو والتأثير عليه، وتهيته للوصول إلى الإيمان واليقين. إنه أسلوب عقلي يوصل إلى اليقين، وليس شكاً أو ريباً في مضمون الرسالة.



وجادلهم بالتتي هي أحسن:

ومن طرائق الدعوة: إظهار المساحات المشتركة مع المدعو، فحين يدعو المسلم نصرانياً، ثم يكشف له مساحات الاشتراك، ويُسمعه الثناء على المرسلين قبل محمد ﷺ، والثناء على مريم وابنها عيسى - عليهما السلام-، يكون هذا النصراني أقرب للإيمان بمحمد ﷺ ، وقد أمرنا ربنا أن يكون جدالنا بالتتي هي أحسن، وإظهار هذه المساحة المشتركة بين الداعية والمدعو من التتي هي أحسن في التعامل والجدال. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

تعالق القول والعمل:

أيها الداعية: إذا حدثتك نفسك بقول الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، فحدثها بتمام الآية: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت: ٣٣].

الدعوة إلى الله يرتبط القول فيها بالعمل، وينبغي على الداعية أن يتعاهد دعوته دائماً في ارتباط القول فيها بالعمل، سواء في خاصة نفسه، أو دعوته، حيث يكون الكلام الطيب نابعاً من العمل الطيب، ويورث العمل الطيب.

ينجح الخطيب حين يخرج المصلي يبحث عن أم يبرها، أو عن قريب يصله، أو فقير يطعمه، أو ملهوف يغيثه، أما إذا عاد المصلي بقلب يشبه قلبه قبل الصلاة، ولا زاد من بره وإحسانه، فقد فاته النجاح، وارتباط الدعوة إلى الله بالعمل الصالح هو إغراء بالعمل، وليس تزهداً في الدعوة، فلا يسوغ حينئذ أن يترك أحدهم دعوته؛ لأنه مقصّر في العمل، بل يستمسك بدعوته ثم يجتهد في تدارك العمل، ويجعل من دعوته سوطاً يضرب به كسله وتفريطه في العمل الصالح.

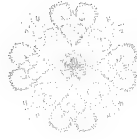
أصدقت أم كنت من الكاذبين:

حُبُّ الدعاة إلى الله واحترامُهم وإكرامهم لا يعني السكوت عن أخطائهم، أو عدم التحقق من أخبارهم وأعمالهم؛ فإن ذلك يضر بالدعوة نفسها، التي كانت هي السبب في احترام هؤلاء الدعاة وإكرامهم. لقد جاء هدهد سليمان داعياً للتوحيد، وفي نفسه الغيرة على دين الله، جاء للملك الصالح المبعوث بالتوحيد (سليمان عليه السلام)، وأخبره متوجعاً من قوم يسجدون للشمس من دون الله، وهذه الدعوة والغيرة وحب التوحيد، لم تُعَفِ الهدهد من اختباره، والتحقق من أخباره: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

وبهذا المنهج الصارم، ستبقى الدعوة إلى الله أكثر نقاء وصفاء.

لقد علمنا رسولنا الكريم أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة.. والدعوة إلى الله أجلُّ الطرق، فإنه طريق إلى الله، فلا ترى أذى فيه إلا احتسبت الأجر في إماطته.

إن مما يحز في النفس أن تسمع الكذبة تتناقلها الألسنة، إنما روجها وأشاعها أحد الدعاة، فإن كان ناقلاً صح لومُهُ في تساهله وعدم تحقيقه، ويعظم الخطب إن كان هو اختلقها مهما كانت نيته.



واجنبني وبنّي أن نعبد الأصنام:

الشعور بالوصاية على الناس ليس من أخلاق الدعاة الله، الوصاية فيها معنى التزكية للنفس، والكبر على الناس، بينما الداعية إلى الله خائف على نفسه كما هو خائف على الناس، ويرى أنه مُعَرَّضٌ للذنوب كلها، بما فيها الشرك الأكبر، لولا حفظ الله.

إمام الحنفاء والموحدين، أبو الأنبياء، إبراهيم -عليه السلام- يخاف على نفسه من الشرك: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، بينما تجد بعضنا يخاف على الناس، ولا يخاف على نفسه!

بمثل هذا الشعور، تنكسر حدة النفس وتزكيتها على الخلق، ويذوق القلب لذة التعلق بالله وحد، في هدايته وثباته: «يا عبادي كلکم ضالٌ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدکم».





ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم:

القلب الأكثر رسوخاً في الهداية هو الأكثر تواضعاً والأقل ادّعاءً،
وحين يطفو على النفس شعورٌ بزيادة الإيمان، والتفوق على الآخرين،
فإن ذلك من ضعف إيمانه لا من قوته.

وقد حكى لنا القرآن مقالة الأعراب في الادّعاء، وعالجها في آخر
سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْنَا لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا
يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥
قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ
يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٧ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[الحجرات: ١٤-١٨]



واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات:

المؤمن والداعية إلى الله يتعامل مع ذنوب الآخرين بالاستغفار، وليس بالملاحقة والفضح والتعير: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وفي هذا الاستغفار معانٍ ضرورية لقلب الداعية: فهو مشغول بذنبه قبل ذنوب غيره، وفيه معنى الانكسار والتواضع، وذنوب المؤمنين لها في دعائه نصيب، وهذا يورث الحب والرحمة والشفقة، ويطرد القسوة والتعير وغمط الناس وازدراءهم.



إن ربك هو يفصل بينهم:

كن على بأسٍ من حسم الخلافات في الحياة الدنيا، والدعوة إلى الله لن تحول جميع الخلق إلى هداة مهتدين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، فحسم الخلاف والفصل

التام بين المختلفين من أعمال الربّ -جل جلاله- وسيكون في يوم
الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل!

في الدنيا لن يكون هذا الفصل، وستظل كل طائفة معجبة بدينها وأفكارها
وتدعو إليه غيرها، وسيظل الدعاة إلى الله في حياتهم الدنيا يعملون في هذه
الدعوة، ولن يأتي اليوم الذي تتعطل فيه الحاجة للدعوة إلى الله.

استحضار هذا المعنى يخفف من الطموح الذي قدّر الله خلافه،
ويساعد على مواصلة الطريق دون يأس أو انقطاع، ويجعل الداعية أكثر
ارتباطاً بمهمته الدعوية وعدم الانشغال بفصلٍ لا يقدر عليه إلا الله.



العبرة في الدعوة ب (النية) لا ب (النتيجة):

الداعية الصادق لا ينقطع عن دعوته لقلة المستجيب؛ فإنه يعمل لآخرته، ولو كان يعمل لدنياه، لحسب أرباحه وخسائره بعدد المستجيبين لدعوته، وعزاء الدعاة إلى الله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهُمْ كَذَّبُوهُمْ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

نجاح الداعية في مواصلة دعوته لربه دون كلل ولا ملل، وإن وجد نفسه في نهاية طريقه دون استجابة، فإن له في بعض الأنبياء أسوة حسنة: «ويأتي النبي وليس معه أحد» كما قال ﷺ.

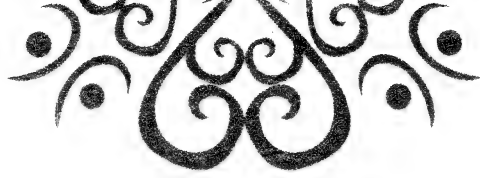


اصبروا وصابروا:

إن النقاء والصفاء الذي يعيشه الداعية في داخل نفسه لا ينبغي أن يصل إلى حدٍّ يعجز معه عن التعايش مع نقائص المجتمع، وأخطائه، وخطاياها؛ فإنه إن عجز عن ذلك، هرب إلى العزلة، وانكفأ على خاصة نفسه، بعيداً عن المجتمع ودعوته وإصلاحه.

هكذا يريد الشيطان وأتباعه: أن تخلو الساحة من خصومهم؛ حتى تجتاحهم الشياطين فيما يغضب الله ويسخطه. الرضا عن نقائص المجتمع خطيئة، والهزيمة أمامها ضعفٌ ونقيصة، ومقاومة ذلك بثبات ودعوة وصبرٍ وحكمة.. حقٌ وفضيلة.

النقاء الذي يحبه الداعية لن يكون في هذه الدنيا، إنما هو في الجنة وحدها. في الجنة (وحدها) لن تسمع ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿[الواقعة: ٢٥-٢٦]، أما في هذه الدنيا فسيظل الداعية يسمع لغواً وتأثيماً، وهو يصبر ويصابر في استقامته ودعوته.



الوقفة الثالثة

عن الإصلاح



أولاً: شرف الإصلاح وضرورته:

١- من شرف الإصلاح أنه يدّعيه ويتمناه كلُّ أحد: البرُّ والفاجر، والصالحُ والفساد، حتى فرعون حارب نبي الله موسى -عليه السلام- باسم الإصلاح ومحاربة الفساد: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ويقول لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وكأنها الفرعون صاحب الإصلاح والرشاد، ونبي الله موسى صاحب الفساد! نعوذ بالله من الكذب والضلال المبين!

والمفسدون في كل زمان رغم إفسادهم إلا أنهم يظنون متشبثين بهذا الاسم الشريف (الإصلاح): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

٢- ودعوى الإصلاح وحدها لا تكفي، فهناك فرقانٌ ظاهرٌ بين الإصلاح والإفساد، مهما بالغ صاحبه في الدعوى، ولذلك جاء الردُّ الرباني الحاسم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

٣- وهذا الفرقان بين الإفساد والإصلاح أودعه الله في فطرة الخلق،

وأنزله وحيًا يهدي به الناس، ويميز به بين الحق والباطل، ومن تولى عن هذا الوحي؛ فإنه مفسد لا محالة؛ فالصلاح والفساد يُعرف بالوحي المعصوم، الذي لا تدخله الأهواء ولا الأدواء، فما وافق أمر الله فهو إصلاح، وما خالفه فهو إفسادٌ ولا ريب: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، فجعل الفساد نتيجة حتمية للإعراض عن الوحي.

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: «والإفساد في الأرض، العمل فيها بما نهى الله جلّ ثناؤه عنه وتضييع ما أمر الله بحفظه، فذلك جملة الإفساد» (تفسير الطبري، آية ١١ من سورة البقرة)

٤- ولأن الإصلاح ضرورة في حياة البشر؛ جعله الله فطرةً في النفوس السوية، يشق عليها ترك الإصلاح ولو حاولت ذلك، فهذا نبي الله موسى وهو من أقرب الخلق إلى ربه، وأكثرهم استجابة لأمره، حين ذهب إلى العبد الصالح، وقد زكاه ربه في علمه، وزكاه في رحمته: ﴿أَيُّنَهُ رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، حتى إذا لقيه، أعطاه ما اشترطه عليه في صحبتته: ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ورغم ذلك؛ فإن موسى لم يستطع بنفسه الزكية، وفطرته القوية أن يترك الإصلاح، ويسكت عن ما يراه من أمر الباطل، وهكذا هي النفوس الزكية، لا تصبر عن الإيجابية، ولا تصبر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد حاول موسى.. ثم لم يستطع عليه صبراً.

٥- والرغبة في الإصلاح ومناهضة الفساد طاقة نفسية عجيبة، تشبه الطاقة التي تدفع الإنسان للغذاء، وتحمله بحثاً عن الرواء.

فحين تمالاً القوم لقتل موسى -عليه السلام- وهو من الإفساد في الأرض- تحركت طاقة الإصلاح المودعة في نفس ذلك الرجل، وجاء من أقصى المدينة يسعى؛ حتى ينقذ حياة موسى: ﴿إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الفصل: ٢٠].

هذه الكلمة تستحق كل ذاك الجهد والجهد، ولذلك؛ ذكره ربه على سبيل الثناء والمدح؛ لأن الله يحب المبادرة والإيجابية في عمل الخير والإصلاح: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [الفصل: ٢٠].

ويشبه هذه اللفتة والإشادة، والموقف والريادة ما حكاه الله في سورة (يس) عن قصة الرسل الثلاثة مع قومهم، وقد كذبوهم وهموا بهم: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْفِقُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وكان من خبره ما كان، في حسن العاقبة والمآل.

٦- وللمجتمع المسلم شخصية اعتبارية، هي الأخرى يجب أن تكون فاعلة في الإصلاح، وألا تترك الفساد ينتشر وسط سكون وغفلة وتشاغل من أهل الصلاح والتقوى، فإذا تنازعت طائفتان داخل المجتمع، يجب

أن يتدخل المجتمع بينهما؛ رحمة وإصلاحاً وحزماً، وتصل الفاعلية هنا إلى حد القتال للطائفة الباغية، إذا استوفى القتال شرطه، وهذا مظهر صارخ في إيجابية المجتمع المسلم وإصلاحه:

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَقِّنُوا إِلَيْهَا حَتَّىٰ تَفِئَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩].

في هذا المجتمع الفاعل المصلح لن تجد يتيمًا بلا كفالة، ولا كبيراً بلا رعاية، ولن تجد دمعة حزينة إلا ولها يدٌ حانية، تتلمس أوجاعها، وتمسح أحزانها، وفي هذا المجتمع الفاعل لن تجد الشيطان سيداً مطاعاً؛ فإن ما يُجذثه من فسادٍ وفتنة له رجالٌ مصلحون، يقاومونه بالإصلاح والتوبة.

٧- أما إذا خلا المجتمع من المصلحين، واستبدت بهم الغفلة والشهوة، وأصبح الفساد بلا مقاومة؛ فإن هذا المجتمع قد استوجب العقوبة الإلهية، بمن فيهم من الصالحين؛ فإن الإصلاح الذي لا يقوى على نشر الإصلاح، هو كذلك لا يكفي لمنع العقوبة، فهو صلاح لا يدفع ولا يمنع: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧].

وفي الحديث تسأل أم المؤمنين رسول الله ﷺ: أهلك وفينا الصالحون؟ قال ﷺ: «نعم، إذا كثر الخبث» [صحيح مسلم (٢٨٨٠)].

فالإصلاح والمصلحون ضمانٌ من العذاب، لو كانوا يعقلون.



ثانياً: وللإصلاح أعداء له وخصوم:

١ - سنة الله في الحياة الدنيا أن يكون فيها العداوة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وأن يكون فيها المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وأن يكون في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء؛ لحكمة يعلمها الله جلّ جلاله: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

٢ - وهذه العداوات لا سبيل للنجاة منها، ولا طريق لاسترضاء الأعداء - على الجملة -، مهما حاذر المصلحون من الأخطاء، ومهما اختاروا في سبيل إصلاحهم الطريق الأرفق والأرحم، فإنهم لن ينجوا من العداوة والأعداء، مادام لهم في الإصلاح قصد وعمل.

يكفيك جرماً عند المفسدين أنك صالح أو مصلح !

يكفيك جرماً عند أهل الخيانة أنك من أهل الأمانة !

﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، تطهرهم فحسب؛ سبب كافٍ للعداوة، والعمل على إخراجهم من قريتهم !

٣- وهذا لا يعني أن جميع العداوات للمصلحين هي بسبب الإصلاح، بل يحدث من المصلحين بعض الأخطاء التي تستوجب المراجعة والتصحيح، ولا خير في إصلاح يستثني نفسه من المراجعة الذاتية، والإصلاح الداخلي، إنما المقصود هو اليأس من طريق إصلاح، لا تضحية فيه ولا أعداء.

ولا يسوغ للمصلح أن يستدل بالعداوة والتضحية وحدها على صحة طريقه ومنهجه؛ فـ (التضحية) ليست دليلاً شرعياً على صحة الموقف، كما أن (السلامة) ليست دليلاً على صحة الطريق، والدليل في موافقة الكتاب والسنة، وطريقة الاستدلال (بالسلامة) أو (التضحية) وحدها على صحة المنهج والموقف، طريقة خاطئة في الاستدلال، وقد حدث بعض هذا من قبل المنافقين: استدلوا (بالسلامة) على صحة موقفهم واختيارهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

٤- وأعداء المصلحين على أنواع شتى: فمنهم المكاشح بعداوته لا يتخفى ولا يتوارى، وهؤلاء أقل خطراً من قوم آخرين يعيشون بين ظهرائي المسلمين، ويتكلمون بلسانهم، ويتظاهرون بحبهم وولائهم، وهم يُضمرون العداوة، ويسعون بالفساد، ويتربصون بهم الدوائر، وربما اتخذوا المساجد والأعمال الصالحة غطاء يستر كيدهم وتدبيرهم،

كما فعلوا في مسجد الضرار، وفيهم أنزلت آيات كريمة ستظل درساً بالغ الحكمة في موقف المصلحين ممن أراد تمرير مشاريعه المفسدة، عبر لافتات مشروعة أو مقبولة.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِقَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يُشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

٥- وبين المصلحين وأعدائهم جمهورٌ محايدٌ يسمع للطرفين، وربما اقتنع بقول المصلحين تارة، واقتنع بمقالة أعدائهم تارة أخرى، وعلى هؤلاء تكون المنافسة والتحدي بين الطائفتين، وعلى المصلح ألا يصيبه الإحباط، إذا رأى لبعض مقالات الأعداء آذاناً صاغية في صفوف المحايدين الذين لم يحسموا خيارهم، أو رأى بعض الصالحين يسمع بعض كلامهم، ويتأثر به، ففي أفضل المجتمعات هناك آذانٌ طيبة، تسمع وتتأثر بأصوات الفتنة والنفاق: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

والواجب حينئذٍ مزيدٌ من العمل والمنافسة والإقناع والتأثير، وعدم الانشغال بالحكم على هؤلاء المتأثرين، أو الإحباط من صنيعهم.

٦- ومما يساعد هذه العداوات والأعداء: خوفٌ في بعض النفوس من أي تغييرٍ أو إصلاح، كما قال الله: ﴿وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ

نُخَطِّفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴿[الفصص: ٥٧].

والتغيير والانتقال لا يخلو من خوفٍ وإزعاج، والطفل يترك بطن أمه الضيق المظلم، ويقبل إلى سعة الدنيا وفسحتها، وهو يصرخ ويبكي.

فالإصلاح يحتاج إلى نفوسٍ كبيرة تصمد لهذه المخاوف، وتتجرّد للحقائق، وتصبر على طول الطريق ومشاقّه، ويحتاج لقدّرٍ من التدرُّج المُطمئن أن الانتقال سيكون لما هو خير وأولى.

٧- ومن أشدّ الأعداء للرسل والمصلحين: (الثبات): ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ٢١].

والثبات على الشيء يصيره عادةً مستقرة، قال ابن القيم-رحمه الله-: «ما على العبد أضر من ملك العادات له، وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين، فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع» (مدارج السالكين: ١٥٢/١).

ومفارقة كل عادة مستقرة أشبه بالمستحيل، ومحاربة العادات على الجملة، غير ممكن وغير مطلوب، ولكن تلك العادات المشتملة على سوء ومكروه.

والثبات لا يُحمد مطلقاً، ولا يُذم مطلقاً، إنما يحمد الثبات، إذا كان عن وعيٍ وبصيرة، وكان على حقٍ ودين، ويذم الثبات، إذا كان عن تقليدٍ وعمية، وكان على إلفٍ وعادة.

٨- ومن أكثر الطبقات خوفاً من التغيير والإصلاح هي الطبقة المترفة، المستفيدة من قوانين المجتمع وشكله وعاداته، وأي تغيير فيه قد يفقدها بعض ترفها ونعيمها، إضافة لما يورثه الترف إذا تطاول عهده من عادات وأخلاق، مجافية للصالح والرشاد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].



ثالثاً: ولأعداء الإصلاح وسائلهم في العداوة:

١- من أهم وسائل الأعداء: الحملات الإعلامية الجائرة في تشويه المصلحين، ونواياهم، واختراع التُّهم الباطلة، والتخويف منهم، ثم الملاحقة الأمنية، والبطش الظالم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢- ومن ذلك: ما اخترعه فرعون من ذنبٍ يريد أن يدين به السحرة حين آمنوا بموسى - عليه السلام -، ويبرر لنفسه البطش بهم: ﴿قَالَ

ءَامَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴿طه: ٧١﴾، فالطغاة لا يعجزون عن تلفيق التهم،
 مهما احتاط المصلحون، ويسهل عليهم أن يخترعوا الأعذار؛ لبطشهم
 وملاحقتهم.

٣- التشكيك في النوايا، والنوايا مهرب يفرع إليه أعداء المصلحين،
 حين يشرقون بحجتهم وأدلتهم: ﴿وَإِذَا تَنَتَلٰٓى عَلَيْهِمْ ءَايٰتُنَا يَتَنَتَلٰٓى قَالُوٓا۟ مَا
 هٰذَا اِلَّا رَجُلٌ يُرِيْدُ ﴿سبا: ٤٣﴾.

وفي قصة المصلح الرباني- موسى عليه السلام- قالوا له بعدما رأوا
 الآيات البينات على صدقه ونصحه: ﴿قَالُوٓا۟ اٰجِئْنَا لَتَلْفَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
 ءَايٰتَنَا وَتَكُوْنُ لَكُمُ الْكِبْرِيَا۟ فِي الْاَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِيْنَ ﴿يونس: ٧٨﴾.

هربوا من منطقة الحجج والبيانات إلى منطق اتهام النيات.

٤- الاتهام بالمؤامرة، وهي تهمة عريّة عن الدليل والبرهان، يفرع
 إليها أعداء المصلحين؛ هربوا من البيانات والأدلة والبراهين: ﴿اِنَّهُ
 لَكِيْۤرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿طه: ٧١﴾، ﴿اَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ اِنَّ هٰذَا لَمَكْرٌ
 مَّكْرَتُوْهُ فِي الْمَدِيْنَةِ لَخَرِيْجٌ مِّنْهَا اَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴿الأعراف: ١٢٣﴾.

وفي موقفهم مع محمد ﷺ: ﴿وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى
 ءَالِهَتِكُمْ اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿ص: ٦﴾.

وهذا يعلمنا ألا نبالغ في الاعتماد على تهمة المؤامرة ضد خصوم الإصلاح؛
فالتحليل المؤامراتي، يعفي العقل من جهد جاد في الرصد والتحليل،
ومعرفة الفرق بين كل حالة وحالة، فإذا أُطلق العنان للتحليل المؤامراتي،
تشابهت الحالات، واكتفى العقل عن الرصد والتفكير بالاتهام المجل.

كما أن المؤامرة دليل غير كاشف، ولذلك يعتمد عليها أهل الباطل
ضد أهل الحق، فهي لا تكلفهم أدلة وبيّنات، وهذا لا يعني إنكار وجود
المؤامرات، والتآمر ضد أهل الحق والإصلاح، ولكن ينبغي أن نعتد
على الحجج والبيّنات، والأدلة والبراهين، أكثر من اعتمادنا على حقيقة
نعتقد أنها لا نملك بينة ظاهرة عليها.

٥- التهوين من عدد المصلحين وأتباعهم، وأن غالب المجتمع
ضدهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤].

فإذا ظهر أمرهم، وفاتتهم القدرة على التقليل من عددهم، اتهموهم بأنهم
قسموا المجتمع وفرقوه، بينما هذا أمر طبيعي، حين يكون داخل المجتمع
طائفة تصر على مناوأة الإصلاح، ومحاربة أهله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥].

٦- وبعد أن تأخذ حملات التشويه حقها، يأتي الحل الأمني ملاحقة
وبطشاً؛ طمعاً في اختفاء الإصلاح وأهله: ﴿فَلَا تُطْعَمُونَ أَيَّدِيكُمْ

وَأَنجَلِكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾ طه: [٧١]، قَالَ سَتُنَجِّلُ
 أَبْنَاءَهُمْ وَلَسَتَنجِي. نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ الأعراف: [١٢٧]،
 ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ الشعراء: [١١٦]، ﴿لَتُخْرِجَنَّكَ
 يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الأعراف: [٨٨].



رابعاً: وللإصلاح رجاله وأخلاقه:

١- من أهم صفات المصلح: الرحمة والإحسان، وفي قصة يوسف
 -عليه السلام- ارتباط عجيب بين الإصلاح والإحسان منذ أن كان مع
 أصحابه في السجن: ﴿نَبْتَغِي بَنَاتٍ وَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَنَا مَالٌ إِلَّا نَزَعْنَاهُ مِنْهُمْ وَأَرْسَلْنَاهُنَّ فِي الْبِلَادِ يَتَّخِذْنَ مِنْهُمْ سَبْتًا كَمَا تَتَّخِذُ الْبِلَادُ مِنْكُمْ وَأَرْسَلْنَاهُنَّ فِي الْبِلَادِ يَتَّخِذْنَ مِنْهُمْ سَبْتًا كَمَا تَتَّخِذُ الْبِلَادُ مِنْكُمْ﴾ [يوسف: ٢٠-٢١]
 وفي حال عزه وسودده: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ
 أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: ٢٢]، ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ
 أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: ٢٢]، وفي عاقبة أمره
 وماله: ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وأي إحسان أعظم من إحسانه إلى إخوته، وهم في حاجته، وهو في
 سودده ورتاسته، وقد أبعده عن أبيه، وهموا بقتله، وجعلوه في غيابة الحب
 على حداثة سنه وضعفه، وأخذ القوم بعيداً، وباعوه بثمنٍ بخسٍ دراهم

معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، ودخل السجن غريباً وحيداً، ثم لازالوا بعد ذلك يقولون: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

أي إحسانٍ راسخٍ في نفس هذا المصلح، حين يغلبُ الإحسانُ بقيةَ النوازع، ويجود بالسَّماح والغفران دون تريث: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ أَلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

حتى الألفاظ في غاية الرقي والإحسان، حين يضطره سياق الشكر أن يذكر المحنة، وما وقع له: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بُيْتِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالشيطان هو سبب المشكلة، وهو وإخوته على مسافة واحدة من المشكلة.

لا أظنه يقدر على مثل هذا الإحسان إلا نبي، ولكن التشبُّه والمحاولة، والتسديد والمقاربة.

٢- إنَّ ارتباط الرحمة والإحسان بالمصلحين أمرٌ فطري، والقسوة والغلظة والبطش عمل المستبدين المتكبرين: ﴿قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِأَلَامٍ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

هما طريقان في عين الفطرة السوية: طريق المصلحين، وفيه الرحمة والإحسان، وطريق الجبارين، وفيه القسوة والغلظة.

لا تحاول أن تقنع نفسك أن بذاءة اللسان، والأخلاق السيئة والقاسية هي من الغيرة على دين الله، ومما يحبه الله ويرضاه.

٣- وفي صفات سيد المصلحين، قال الله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. [التوبة: ١٢٨].

لا يوجد إصلاح حقيقي يقوده «الحقد».. الحقد يقود الدمار والانتقام، وفي قلوب المصلحين يجب أن تسود الرحمة والرفقة، والعفو والإحسان، والتحدي الأكبر في الثبات على هذه المعاني، رغم طول الطريق ومشقته وعنته.

٤- ومن أخلاق المصلحين ومهاراتهم: الإعراض الجميل عن الخصوم، والصمود إلى مشروعه النافع.

إن كثرة الأمر بالإعراض في القرآن ملفقة للانتباه، فالمصلح لا يسمح لردة الفعل أن تُخرجه عن هديه وهدفه: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

يهزمك خصمك.. حينَ يسلب منك اعتدالك وهدوءك، أو حين تنشغل به عن الاشتغال بنفسك، والمصلح مشغول بمعركته مع نفسه، في عفة لسانه، وكظم غيظه، ومواصلة طريقه.

والإعراض دربة تحتاج إلى تدريب ومجاهدة، وهو عمل إيجابي وليس

سليماً، تُعرض عن أذيتهم، ولا تنقطع عن إصلاحك، ومشروعك النافع:
﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٥﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾
[الذاريات: ٥٤-٥٥]، فالأمر بالتولي عنهم، مقرون باستمرار العمل والتذكير.

والعاقل من اتخذ من أذية خصومه طاقةً جديدة، تورثه الإصرار،
والتحدي على مواصلة الطريق، ولو انشغل المصلحون بما يقوله
خصومهم، وانهمكوا في ردود الأفعال على أذيتهم، لم تتحقق مقاصد
الإصلاح وآماله.

٥- وما يساعد على الإعراض الجميل، وعدم الاكتراث الكبير
بما يقولونه من سب وشتيمة وتهمة: أن هذا طريق المصلحين، ولم
يسلم أحدٌ من ألسنة الخلق، حتى بلغت أذيتهم وفجورهم لمقام الرب
عز وجل: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]،
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وعزاء المصلح أن المغرضين لا يملكون إلا الأذية، أما البراءة الحقيقية،
والوجهة، فمن الله وحده: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً [الأحزاب: ٦٩].

٦- وزاد المصلح في طريقه الطويل هو التوكل على الله، والصبر،
واحتمساب الأجر في كل ما يلقاه من ضرٍّ وابتلاء: ﴿لَا ضَيْرٌ لَنَا إِلَى رَبِّنَا

﴿الشعراء: ٥٠﴾، ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾
 [الأعراف: ١٢٨]، وقد قالت الرسل لأقوامهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ
 عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا أَدَّبْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وفي وصية الله لنبيه ﷺ مع أذية الكافرين
 والمنافقين: ﴿وَدَعْ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وفي الصلاة، والذكر، والدعاء، مدد وقوة، تعمر القلب بالإيمان،
 والتوكل، وإيثار الآخرة على الأولى، ومن كان مع الله لم يستوحش في
 طريقه، واسترخص كل غالٍ في سبيله، هم يهدونه بالقتل.. وعامة
 دعائه في سجوده: الشهادة في سبيل الله! ولكنهم لا يفقهون.

٧- وما يجب مراعاته في الإصلاح: شرط القدرة والتخصص،
 فالرغبة والنية الصالحة وحدها لا تكفي، وقد قال رسولنا ﷺ في قصة
 تأبير النخل: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

فمعرفة المصلح ما يحسنه وما لا يحسنه، وما هو من شأنه وما ليس من
 شأنه أمرٌ في غاية الأهمية، ويوسف -عليه السلام- قال للملك: ﴿قَالَ
 اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

فالعلم والقدرة هنا شرط لا يقل أهمية عن الأمانة والنية الصالحة.

٨- وما يحتاجه المصلح: وضوح الرؤية؛ فإن وضوح الرؤية هو الذي

يستوعب كافة التفاصيل، فلا يضرب بعضها بعضاً، بل تتحول إلى اتجاه محدد، نحو رؤية واضحة تعود على المجتمع بالنفع والفائدة.

لا ينبغي أن يغرق المصلح في التفاصيل حتى يفقد (البوصلة)، وضوح الرؤية أنقذ أمة من المجاعة والمسغبة، فاستعدوا للسنين العجاف، بالعمل والادخار: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنُبِكُمْ ۖ وَلَا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴾ [يوسف: ٤٧].



خامساً: وللإصلاح طرائقه وأساليبه:

١- الاتِّباع والإصلاح ليس حماساً فحسب، بل هو فقهٌ وبصيرة قبل أن يكون عملاً وعزيمة، ويخسر بركة الهدي النبوي من اكتفى في المتابعة بظاهر العمل، وغفل عما يتضمنه ذلك العمل من شروطٍ عديدة، فيها زمان ومكان وإمكان، وطريقة وأخلاق، فإذا اجتمعت جميعاً كانت من الحكمة التي تشهد لرسول الله بالإمامة والسيادة.

تَعَجَّبُ مَنْ يَتَعَامَلُ مَعَ الْإِتِّبَاعِ وَالتَّشَبُّهِ بِالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ بِسَطْحِيَّةٍ بِالْغَةِ تَكْتَفِي بِمِرَاعَاةِ ظَاهِرِ الْعَمَلِ، وَلَوْ فَارَقَ مَا يَتَضَمَّنُهُ ذَلِكَ الْعَمَلُ مِنْ

حكمة في مراعاة الوقت والمكان والطريقة والأخلاق، وما يترتب عليه من مصلحة تربو على المفسدة، وبالمثال يتضح المقال، فقد أمر رسول الله ﷺ باتباع أبيه إبراهيم - عليه السلام - كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحْبَبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٣١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [النحل: ١٢٠-١٢٣]، ولا يخالف إبراهيم عليه السلام إلا من سفه نفسه: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ومن أعظم مواقف إبراهيم مع التوحيد ومنازمة الشرك، قصة هدمه للأصنام، فقد جعلها جذاداً في قصة عجيبة خلدها القرآن، وتحمل في سبيل ذلك شيئاً عظيماً، حيث أجاجوا نارهم العظيمة، وهو يراها ويتنظر مصيره، ثابتاً صابراً محتسباً، ورموه فيها، لولا أن الله سلّم وقال لها: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

لقد سمع رسول الله هذه القصة وهو يدعو للتوحيد في مكة، والأصنام تحيط ببيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إمام الحنفاء، والذي ألقى به في حمم النار؛ محاربة للأصنام وأهلها.

فلماذا لم يبادر رسول الله وأصحابه بهدمها؟! ولماذا لم يفعلوا ذلك مهما

كان الثمن ولو تحمّلوا في سبيل ذلك حُمَم النار؟!

أليس الاتباع والتشبه بإبراهيم عليه السلام يقتضي ذلك؟!

أليس التوحيد هو أعظم ما تدعو إليه الأنبياء، وهذه الأصنام هي
الشرك الأكبر، وفي أطهر وأول بيت وضع للناس؟!

كلّ هذه الأسئلة تعصف بعقل ذلك الذي يرى الاتباع عملاً وعزيمة،
وينسى أنه قبل ذلك فقهٌ وبصيرة.

لقد مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ولم يهدم الأصنام،
ثم عاد لمكة معتمرًا، وطاف بالبيت العتيق، والأصنام حوله تُلَوِّثُ
المسجد الحرام بالشرك الأكبر دون أن يهدم منها شيئاً، حتى إذا فتح مكة،
جاء (الوقت) الأنسب لهدمها على الأرض بعد أن هدمها في القلوب،
وبعد أن جاءت القوة التي تحمي التوحيد، ولا تسمح للشرك أن يعود
في مكة على هيئة أقوى وأرسخ، وأخذ يهدمها وهو يتلو: ﴿جَاءَ الْحَقُّ
وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

حُبًّا في التوحيد؛ تأخر رسول الله ﷺ في هدم الأصنام، ولاريب أن رسول
الله أحظى الخلق بإبراهيم عليه السلام، وأكثرهم (اتباعاً له)، وقد كان اتباعه
بأبي هو وأمي ﷺ فقهًا وحكمة وبصيرة، قبل أن يكون همّة وعملاً وعزيمة.

الإصلاح والدعوة والاتباع إذا خلت من الحكمة ومراعاة الزمان والمكان والإمكان لم يكن لها حظٌّ من تلك الأسماء الشريفة إلا النية، والنية الطيبة وحدها لا تُقيم حقاً ولا تهدم باطلاً.

أخطر شيء في الاتباع أو الإصلاح حين نتعامل مع الأحكام الشرعية بعمائة، ونكتفي بظاهرها كيفما اتفق، ولو كان ذلك يعود على أصل الفعل بالنقض والإفساد، وإذا رأى نتائج فعله الخاطئ ومآلاته توهم أنها من الابتلاء في ذات الله.

الاتباع في الحكمة المُستَبْطَنة داخل العمل أهم وأعظم من الاتباع لظاهر العمل، وربما تأخر المصلح في تنفيذ بعض الأحكام الشرعية كما تأخر رسول الله في هدم الأصنام؛ يبتغي لها أفضل الأوقات والأحوال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

٢- ليس الإصلاح على وجه واحد، فبينما كان موسى -عليه السلام- يحمل عبء الإصلاح الظاهر المعلن، حكى لنا القرآن قصة إصلاح أخرى من داخل القصر، رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتُم إيمانه، وفي الآيات التي سجلت لنا تفاصيل كلامه وحرقة ودعوته بما يناسب حاله ما يبين لنا أن الإصلاح وجوهاً مختلفة، وأساليب متنوعة، والحكمة الشرعية تختار وتتقي.

خطاب مؤمن آل فرعون مدرسة في (الإصلاح من الداخل)، بكل شفقة ورحمة وحكمة. وقد احتفى القرآن به، وأطال في حكاية أمره وإقناعه.

يستحق هذا الخطاب مزيداً من البحث والدرس.

٣- ومن التنوع في الإصلاح: التنوع في التعامل مع الخصوم والأعداء، فليسوا سواءً، وما يصلح لهذا قد لا يصلح لغيره، واشتراكهم في أصل العداوة أو الشرك لا يوجب التسوية في التعامل معهم. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

كيف يفهم هذه الآية، من يجعل أعداءه في سلة واحدة؟! التمييز بين الأعداء، وإدارة الصراع معهم، عمل شرعي، وهدى نبوي.

لقد فارق رسول الله ﷺ في تعامله بين عمّيه المشركين: أبي طالب وأبي لهب، وفارق في تعامله بين مشركين آخرين: أبي جهل، يقاتله وينازله في بدر، ويُقتل هناك شر قتلة، والمطعم بن عدي، الذي يقول عنه رسول الله بعدما رأى أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له».

إنه مشرك بالله، وهذا يوم الفرقان، وهؤلاء الأسرى هم فلذات أكباد عدوهم اللدود، ومع ذلك، لو سأله لأعطاه، هنا يجب أن ندرك أن البراءة

من الشرك وأهله لا تعني المساواة في التعامل معهم، وعداوة الإصلاح لا تعني عدم التفريق العادل والحكيم بينهم، والصراع كما هو عزيمة وهمة، فهو إدارة وحكمة، وحيث نفكر نحن كيف نهزم خصومنا، فإن كبار المصلحين يفكرون أيضاً كيف يكسبون بعض خصومهم، وكيف يجيدون بعضهم.

٤- في بعض الأحيان قد يوافق المصلحُ عدوّه في أمرٍ معين، المصلح على نية وعدوّه على نية أخرى، ومن التزم أبداً بمخالفة عدوه، جعل قيادته في يد العدو، فكلما عمل عدوه عملاً، عمل المصلح خلافاً، هذا ليس إصلاحاً له رؤية مستقلة، بل هو مناكفة عبثية تصل إلى حد التبعية للعدو، عن طريق مخالفته.

يقول الله لنبيه: ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِأَلْفٍ لَكَ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٩٥].

لقد أرادوا أن يعرض رسول الله عنهم، ووافقهم رسول الله في الإعراض؛ لأنه يختار قراره بناء على رؤيته، والأصلح لدينه، ومشروعه، ولا يهم بعد ذلك وافقهم أو عارضهم، وأحياناً أخرى، يتفق مع عدوه على مشروع واحد، إذا كان هذا التعاون يحقق مقاصده النبيلة، كما هو الحال في حلف الفضول، وكما توافق هو ومن معه في المدينة من اليهود

وغيرهم، على ما يحفظ المدينة، ويحقق لها أمنها وحمايتها.

المخالفة الدائمة ليست إصلاحاً، والموافقة الدائمة ليست إصلاحاً، والإصلاح رؤية واضحة ومستقلة من تبعية الموافقة والمخالفة.

٥- ومن أهم أنواع الإصلاح، وهو الذي يُبقي على الإصلاح نقاءه وألقه: حركة التصحيح والإصلاح لمسيرة الإصلاح نفسه، الإصلاح يجب أن يرتبط بالمبدأ، وأن يتحرر من الأشخاص والتجارب، ولا يكون هذا التجرد إلا إذا تجرع أصحابه مرارة الاعتراف بالخطأ، وأمام خصومه المناوئين.

أعمال الإصلاح ومشاريعه ليست هي النسخة الأصلية من الإسلام، بل هي اجتهادات تخطئ وتصيب، ولذلك؛ يجب أن نصغي للمخالفين والمناوئين كذلك؛ فقد يقول المناوئ بعض الحق، والاعتراف بالخطأ حينئذ هو تجردٌ للحق وللإصلاح ومبادئه النبيلة.

وفي قصة قتل ابن الحضرمي على عهد النبوة أسوة وعبرة.

لقد انتقد الأعداء صنيعاً فعله المخلصون للإسلام، والمضخون من أجله، قاتلوا في الشهر الحرام في القصة المشهورة، وانتقدهم المشركون المحاربون الظالمون، فنزل القرآن بالمنهج العظيم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

هنا منهج عظيم لن نقف عليه كما ينبغي، حتى نستحضر ما بين الفريقين من سنوات طويلة، مليئة بالظلم، والاضطهاد، والبغي، والعدوان.. ولكن الحق أحق أن يتبع.

ربما يجد المصلح في خطايا خصمه عذراً في عدم الاعتراف بخطئه، ولكن هذا سيجعل المصلح يستمرئ الخطأ، حتى يشبه خصمه، وكل مخطئ في هذا الطرف ينظر لمخطئ في الطرف الآخر، حتى يفقد الإصلاح تميزه وهدفه.

إن تركيزك الطويل في أخطاء خصمك يسمح لأخطائك أن تعيش وتنمو بأمان.

لا بد من اليقظة التامة والمراجعة المستمرة؛ حتى لا تُثقل مسيرة الإصلاح أخطاء التجارب، يقظة تكشف الخطأ في تصرفات الأصدقاء؛ للتصحيح والتدارك، وتكشف الصواب والحق في تصرفات الخصوم؛ لتسبق وتنافس، ولا يوجد في طوائف الناس من هو شرُّ محض، ليس فيه خبرة أو حكمة، ولا يوجد خيرٌ محض، ليس فيه خطأ أو زلل.

وقف موسى -عليه السلام- أمام فرعون، رسولاً من رب العالمين، وحين خاطبه بأمر ربه، قال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

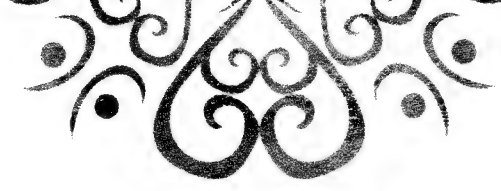
[الشعراء: ١٨-١٩].

لا مجال إذن لإنكار الخطأ، مهما كانت جرائم فرعون، وبعد الاعتراف بالخطأ، يمكن أن يكمل الحديث بذكر خطايا فرعون: ﴿وَلَكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. كما قال ربنا في الآية السابقة: ﴿يَسْتُلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٦- هل الرد على المخالفين أسلوبٌ في الإصلاح؟ بعضهم انهمك في الردود، حتى أصبحت أخطاء الآخرين هي التي تقود مشروعه، وبسبب ذلك وغيره؛ التزم بعضهم عدم الرد على المخالفين، والصواب أن بين الانهماك في الردود، والإعراض التام عن الردود خيارات كثيرة، والحكمة هي التي تؤيد الرد تارة، والإعراض تارة أخرى؛ مراعاة لأمر مختلف باختلاف الأحوال، والقرآن كانت له رؤية واضحة بينها في قلوب وعقول أتباعه، ومع ذلك، لا يترك الرد على الشبهات المناوئة، والأديان المنحرفة، وفي آية لها دلالة عجيبة يقول الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ﴾ [البقرة: ١٤٢]، فحكم عليهم بالسفه، ومع هذا رد على مقالتهم، وقال الملاء للمصلح الكبير -نوح عليه السلام-: ﴿يَسْخَرُونَكَ جَدَلْتَنَّا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

إن الرد في صورته الحكيمة: وقتاً، وقدرًا، وأسلوباً فرصة لبيان الحق والدعوة إليه، وتثبيتُ للمخلصين من الأتباع ممن يقصر علمهم وحجتهم عن بعض الشبه، وبالتأكيد، فهناك تشغيبٌ لا ينتمي للحجج والشبه، وهناك سخرية واستهزاء لا ينبغي للمصلح أن ينزل إليها، فبضاعة أهل الحق والإصلاح: الحجج والآيات البينة، وبضاعة أهل الباطل: الاستهزاء والسخرية: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (١٣) وَإِذَا ذَكَرُوا لَا

يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ [الصفات: ١٢ - ١٤].



الوقففة الرابعة

اجتماع الكلمة

ضرورة الخلاف وضرر التنازع

الخلاف شيء.. والتنازع شيء آخر:

الخلاف قدرٌ ربانيٌّ لا يمكن معاندته، وقد خلقه الله لحكمةٍ وفائدة، ولن تجد شيئاً مفطوراً عليه الخلق إلا وله فائدةٌ ضروريةٌ تعود على الحياة واستمرارها بالخير والنماء. الخلافُ شيءٌ والتنازعُ شيءٌ آخر، التنازع هو الصورة الرديئة للخلاف، واستتصالُ الخلاف بكل صورة غير مقدورٍ عليه كوناً، وغير مطلوبٍ شرعاً، والمنافسةُ الشريفة هي من الصور الجميلة في استثمار طاقة الخلاف المودعة في النفس البشرية، المنافسة الشريفة هي وقود النجاح: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

اعترفت الشريعة بطاقة المنافسة، واختارت القيم والمقاصد التي ينبغي أن يتنافس عليها العباد. إن الذي أنزل الشريعة هو الذي خلق الخلق سبحانه، ولا يمكن أن تأتي الشريعة لمعاندة الفطرة والخلق، بل لتهديها وتزكيها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾.

وعندما جاء رسول الله ﷺ إلى المدينة آخى بينهم، لكنه لم يبلغ ما بينهم من تنوع واختلاف، فبقي الأوس والخزرج في تمايزٍ مرده إلى النسب، وبقي المهاجرون والأنصار في تمايزٍ مرده إلى العمل، وكانت هذه الأسماء تزيد

من طاقاتهم ومنافستهم في اتجاه الحق ورفعة الدين، ورغم ما يحدث بسببها في بعض الأحيان من عصبية جاهلية إلا أنها كانت تقاوم بالتهذيب الذي يُبقي فائدة التنوع دون ضرره، ولم يُستأصل التنوع والاختلاف بالكلية، حتى لا يبقى نسبٌ أو عملٌ يمايز بينهم، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

الاختلاف ليس شراً محضاً، ولم يخلقه الله ويقدره إلا للحكمة بالغة، فالخلاف الرشيد يأخذ المجتمع نحو الأفضل، ويستخرج من النفوس أئمنَ ما فيها من طاقة وإبداع، والخلاف لمن أحسن إدارته ثراءً وتنوع، وحراراً وتقدم، أما من يفشل في إدارته فهو تنازعٌ يمزق الوحدة، ويعرقل المسيرة.

إن الخلاف داخل المجتمع ضرورة كونية وشرعية، وما لم يتم الاعتراف به مع تنظيمه وإدارته؛ فإنه يتحول إلى حالة نزاع وشقاقٍ وفُرقة، والمجتمعات لا تنهض ولا تتقدم دون خلافٍ وتنوعٍ ومنافسة. ستلاحظ دائماً أن إلغاء حق الاختلاف والتنوع لا يورث المجتمع (اجتماعاً وقوة) بل (تنازَعًا وفتنة)، ولو خلت ديارنا من الاختلاف لكان من العقل والحكمة أن نستدعي بعض الخلاف؛ فالتقدم والتنمية والتطور لا يظفر بها مجتمع التنازع والفشل، كما أنه لا يظفر بها مجتمع الركود والتشابه.

الأهم في الخلاف إذن هو الاعتراف به، وإدارته بطريقة صحيحة تفرز بين الخلاف المقبول وغير المقبول، واتخاذ القوانين اللازمة في تنظيم هذا الخلاف وتحويله إلى طاقة جديدة للنجاح.

لبيتنا نتوقف عن أحلامنا بترك الخلاف، لأنها أضغاث أحلام، تخالف
القدر الكوني في هذه الحياة الدنيا، كما أنها لو تحققت -ولن تتحقق- تضر
بقدر ما تنفع، وكل جهود يبذلها المصلحون في معاندة الخلاف ومكافحته
هي تضييع للوقت الثمين الذي يجب أن يُبذل في الاعتراف بالخلاف
والعمل الجادّ على حسن إدارته.

البشر.. كل البشر، يجري في عروقهم الخلاف كما تجري الدماء،
مسلمون أو غير مسلمين، إنها يتفاوت الناس في حسن إدارتهم لهذا
الخلاف، حتى يصبح الخلاف لقوم سُقيا رحمة.. ولآخرين سُقيا عذاب.

للخلاف قوانين تديره:

هناك أمور ستبقى محل نزاع ومغالبة مهما كان القرار مهنياً
وموضوعياً؛ لزيادة شهوتها وتَشَوُّف الناس إليها؛ ولذلك يجب
فيها من الاحتياط والضبط والإدارة ما لا يجب في غيرها، فشهوة
الرئاسة راسخة في النفوس، وربما بُذلت فيها المهج والأموال، وما لم
تكن هذه المنافسات والخلافات وفق قوانين صارمة للغاية تدير هذا
الخلاف، فستحلّ الفتنة ويتمزق الناس ويتشرّ الهرج والمرج، وفي

القرآن ما يكشف حجم المشكلة، فقد اختار الله طالوت للملك، وهو اختيارُ رباني لقومٍ طلبوا من نبيهم ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فلما اختار الله لهم ملكا اعتراضوا ويا للعجب!

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

إنه اختيارُ رباني، جاء بطلبهم وانتظارهم، واختار لهم من هو ظاهر التميز والتفوق؛ بسط الله له في العلم والجسم، ثم بعد ذلك

يعترضون! لاسبيل إذن لعدم الاعتراض، وما لم تكن هناك قوانين في غاية الصرامة تدير الخلاف في مثل هذه الموضوعات، فستبقى محل نزاع وفتنة، وإضعاف للأمة.

التنوع ضرورة:

بعض الخلافات بين الدعاة والمصلحين تشبه هذا الخلاف - وفي كل خير: نبي الله سليمان يقول: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، بينما محمد ﷺ يختار لنفسه أن يكون عبدًا رسولاً.

ليس بالضرورة أن نكون نُسخًا متشابهة، وطرائق متطابقة، وليس بالضرورة أن يكون أحدهما مصيباً والآخر مخطئاً، حتى الفاضل والمفضول قد يصبح المفضول فاضلاً في هذا الزمان أو ذاك المكان أو لذلك الشخص. وقد سئل رسول الله مراراً أي العمل أحب إلى الله، فتنوعت الأجوبة ولم تأتِ بعملٍ واحد.

وربما قامت كل طائفة بفرض كفاية وينفع الله بها نفعاً كبيراً.

وكما يتقاسم الناس حاجات الدنيا فيقوم بعضهم بالطب أو الهندسة أو الزراعة أو البناء أو التعليم وتقوم دنياهم على هذا التنوع الضروري، فإن قيام الدين وقوته وانتشاره لا بد له من مثل هذا التنوع.

الأجر والأجران:

وبعض الخلافات بين الدعاة والمصلحين تشبه هذا الخلاف: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

يقع الاجتهاد في الحكم والإصلاح، وربما اجتهد أحدهم فأخطأ، ولا يُخرجه خطؤه عن فضل العلم وأجر الاجتهاد: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾.

والمجتهد المخطئ ليس معذوراً فحسب، بل مأجور على اجتهاده، ومهما بلغ العاملون للإسلام من العلم والفضل وتحري الصواب، فإنهم مخطئون لا محالة، وبعضهم يكون أقرب للصواب من بعض، فهذان نبيان كريهان يبتغيان العدل والإصلاح، كان أحدهما أصوب من الآخر: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

كذلك موسى وهارون اختلفا في التعامل مع حادثة العجل، فبينما بقي معهم هارون، كان موسى يرى مفارقتهم واتباعه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (١٢) أَلَا تَتَّبِعَنِ ﴿ [طه: ٩٢-٩٣].

الاختلاف ليس شراً محضاً، إذا كان عن اجتهاد شرعي، وقبولُ
الاجتهاد لا يعني التسوية بين الآراء، حتى لا تضع الطاقة الحافزة
للبحث عن الصواب، وقد جعل رسول الله ﷺ لأُمَّته طاقةً حافزة للبحث
عن الصواب بفتحه لباب الاجتهاد، وعذر المخطئ بعد اجتهاد، وإكرامه
بالأجر والثوبة؛ حتى لا يتهيب الناس عن المحاولة والبحث، ثم تَمَّ هذه
الطاقة وكَمَّلها بتمييز المصيب بمزيد من الأجر والخير، حتى لا يسترخي
بحُثّه، ولا يضعف اجتهاده، وكم في هذا الاجتهاد من خير يعلمه الله،
ففي حركة الاجتهاد حفظٌ للشرعة، حيث يفيثون إليها كلما اختلفوا،
وتميّزُ بين صحيحها ومنحولها حين يتفاوتون في الرأي ويتشاحون في
الحجة، وبهذا الاجتهاد يُقْبَلُ الأذكياء على علوم الشرعة، ويظهر العلماء
الربانيون القائمون بأمر الله وشرعه.



هو سماكم المسلمين من قبل:

لا يوجد ما يمنع من الأسماء الخاصة: (سلفية، أو شافعية ونحو ذلك)، ولكن لا ينبغي أن تصل لمزاحمة هذا الاسم الشريف: ﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فعلى هذا الاسم تنعقد المولاة والنصرة والنصيحة، أما الأسماء الأخرى فهي للتعارف والمنافسة على عمل الخير، وبهذين الأمرين يبقى للأمة اجتماعها وهيبتها باسم الإسلام، ويبقى لها حراكها وحيوتها بالتنوع والمنافسة.

عن أبي عبد الله



ضرر التنازع:

التنازع إرادة شيطانية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: ٩١].

إن الشيطان ينشر بضاعته داخل المجتمع المسلم بكل طريق، وربما دس بضاعته في حقائب بعض المتدينين، فظلوا ينشرون التنازع باسم الشريعة وهم لا يشعرون.

دين الله لا يزيد المجتمع المسلم إلا اجتماعاً وألفة، هذا صراط الله المستقيم، صراط الذي أنعم الله عليهم، أما المغضوب عليهم، ف ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

ومن هذه الأمة من يشابههم ويتبّعهم، كما جاء في الحديث.

إن التنازع بين المسلمين يورث غضب الله، ويورث الضعف والفشل، وسنة الله لا تتخلف، وقد أصاب المسلمين ما أصابهم يوم أحد جرّاء التنازع، وهم أكرم الخلق على الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ﴿٢٣﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وأهم أسباب التنازع: الإعراض عن دين الله كما أنزله الله، قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

فالتولي والإعراض عن ما جاء به محمد ﷺ هو سبب الإفساد في الأرض، وسفك الدماء، وقطيعة الأرحام.

ومن الإعراض عن دين الله: الحسد، وسوء الظن، والغيبة، والنميمة وغير ذلك.

وبعض المفسرين جعل التولي هنا عن أمر الجهاد في سبيل الله، لسياق الآيات قبلها، ولاشك أنه من الإعراض والتولي عن دين الله، وفي هذا المعنى فائدة نفيسة، فإن من قَصَّر في مناوأة الأعداء الحقيقيين انصرفت عداوته لإخوانه المسلمين، ففرقت الكلمة، وتقطعت الأرحام.

إن في النفس الإنسانية مشاعر للعداوة والبغضاء لا يمكن أن تكبت، وما لم يصرفها الإنسان لمن يستحقها، فإنها تتسرب داخل المجتمع المسلم؛ فتفسد حُمته، وتفرق جَمْعته، فالإسراف في معاني الحب والتسامح لا يلغي الطبيعة البشرية، بل يجعلها تتسرب دون رقيب، وقد قيل: ما رأيتُ سَرَفًا إلا ومعه حقٌ مضيع.

سبب الاجتماع:

من عرف أسباب التنازع عرف أسباب الاجتماع، فلا حاجة لإعادة الكلام وتكراره، ولكن يُضاف هنا سبب مهم للاجتماع، وهو سبب محايّد يأخذه المسلم والكافر فيزيدهم اجتماعاً، والاجتماع من زيادة العقل، والتنازع لقوم لا يعقلون.

إن إدارة الخلاف علم خاص، يتطور مع الأيام، ومن أهم أدواته: (الشورى)، والشورى يحبها الله ورسوله حتى لو كان الموضوع (فظاماً عن رضاة): ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، وقد أثنى الله على المؤمنين بأن أمرهم شورى، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والشورى أمر الله سبحانه، وخير الأمر أمره، أمر به نبيه الذي يوحى إليه، ولو استغنى أحد عن عبادة الشورى لاستغنى صاحب الوحي ﷺ.

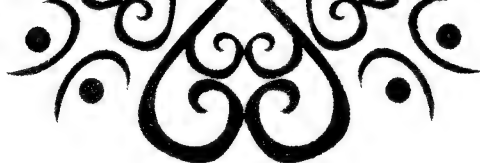
قال الله لنبيه: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فَلَا تُقَرَّبُ إِلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فَلَا تُقَرَّبُ إِلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فَلَا تُقَرَّبُ إِلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فَلَا تُقَرَّبُ إِلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وانظر كيف جاء الأمر بالشورى في سياق اجتماعهم وعدم انفضاضهم، ولا يجتمع القلوبُ على أحد دون الشورى التي هي أهم أدوات إدارة الخلاف.

إن في الشورى خيراً وبركة، وما استعملها أهل خير إلا زادت برّهم وخيرهم، ولا استعملها أهل شر إلا خففت من شرهم، وباعدت بينهم وبين أسباب الهلكة، وفي قصة يوسف كادوا أن يقتلوه، لولا (الشورى): ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: ١٠].

إن الشورى معنى عام، وهي تتطور في أدواتها وطريقتها باختلاف الزمان والمكان والإمكانات.

والشرع والعقل يشهدان للشورى ويدعوان إليها، وبإلله الحسرة.. حين تنهض بالشورى أمم كافرة، فيجتمع شملها، ويلتم شعنها، وأمة محمد ﷺ في بُعدٍ عن الشورى، غارقة في بؤسها وتنازعها ومغالباتها.



الوقففة الخامسة

النقد



نعمة الندم:

(الندم على الخطأ) يشبه ألم المرض، هو مؤذٍ ومزعج، غير أنه خُلِقَ لحكمة ربانية، تعود على حياة الإنسان بالنفع والفائدة؛ فألم المرض يوقظ صاحبه وينبهه على مرضٍ يحتاج للدواء، والندم على الخطأ يساعد صاحبه على الانتهاء. يقول الله تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِ مَا عَمَلْتُمْ نَذِيرٍ﴾ [الحجرات: ٦]، وكأن هذا الندم الذي يلحق المخطئ تحذير كافٍ من الوقوع في الخطأ.

والنقد يبين الأخطاء فيجلب معه الندم، ولذلك؛ يكره كثير من الناس هذا النقد، فكأن النقد يوقظ الندم من جديد، هذا في حال صحة النقد، فكيف إذا كان النقد بغيا وزورا؟!.

الانزعاج النفسي من النقد أمر طبيعي، ولولا هذا الانزعاج لاستوى في نفس الإنسان الصواب والخطأ، ولم يحرص ويجتهد في تجويد العمل وإتقانه.

وللتعامل الجيد مع النقد وما يرتبط به من (نعمة الندم)؛ ينبغي أن يسمع الإنسان النقد بأذن عقله لا قلبه، فأذن العقل تفيد الخبرة، وأذن القلب تُضعف المهمة، وينبغي أن تنظر للنقد على أنه فرصة لتحسين المستقبل،

وليس حكماً على الماضي، وينبغي أن يعتدل هذا الندم؛ فإن الخوف من الخطأ إذا زاد، منع من العمل، فينفع قليل الخوف، ويضرّ كثيره، والقصد القصْدَ تبلغوا!

إن البيئة التي تبالغ في الندم على الخطأ والخوف منه لا تصنع المبدعين، وتعاقب العاملين، كما أن البيئة التي تستهين بالخطأ ولا تندم عليه تفقد قدرتها على الإتيان والتطوير.

النقد والتصحيح الذاتي:

العاقل يستفيد من النقد أيّاً كان مصدره، وأيّاً كانت نيّة صاحبه، حتى الأعداء لنقدمهم نفعً وفائدة:

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فلا أبعد الرحمن عني الأعدايا
هُمْ بَحِثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنِبْتُهَا وهم نافسوني فاكسبت المعاليا

ولأن النقد والتصحيح ضرورة؛ فلا ينبغي أن يكون دورنا معه القبول والاستفادة فحسب، بل نبحث بأنفسنا عن أمر يستحق التدارك، وخطأ ينتظر التصحيح، ويجب أن يكون هناك حركة ذاتية

في النقد والتصحيح، وإلا فإننا سنحافظ على أخطائنا كما نحافظ على مزايانا، وستحول الأخطاء مع الوقت إلى جزء من المنهج يُنكر على من يفارقه ويخالفه. التطوير والمنافسة للأمم الأخرى لن تتم دون حركة النقد والتصحيح الذاتي.

وفي الآيات الكريمة التي نزلت بعد غزوة أحد مدرسة قرآنية في النقد والتصحيح، وتلك التجربة كانت مع الصفوة المختارة من خلق الله، محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

تستحق هذه الآيات مقالات تستنتق منهج النقد فيها، وطريقته وأسلوبه، ولا مانع هنا من أن نذكر أن النقد والتصحيح الذاتي على أهميته وضرورته، إلا أنه قابل للغلو الذي يضر بالواجبات الأخرى، فأهمية هذا الواجب لا تعني أن ننسى الواجبات الأخرى التي تتكامل معه، مثل الشكر والتشجيع على المزايا.

النقد والتصحيح (دواء)، والشكر والتشجيع (غذاء).. يموت جوعاً مهما أكرمه بأدويتك !.

وأهمية النقد والتصحيح لا تعني أن يقضي الإنسان عمره برفقة العيوب والأخطاء، بحجة النقد والتصحيح.



التبرير والمكابرة:

للنفس الإنسانية قدرة على تبرير الخطأ، والالتفاف على النقد الصحيح؛ حتى يُرضي ضميره، وينجو من وخز الندم، وهنا مشكلة حقيقية، حين يجعل الإنسان بينه وبين النقد حجابًا نفسيًا يمنعه من مكاشفة نفسه، ومعرفة أخطائه، هذا الحجاب يكون بالتبرير تارة، وباتهام الناقد تارة أخرى، حتى يصل به الحال إلى اعتبار كل نقد (شبهة) تحتاج إلى رد، وكل (ناقد) مناوئًا يحتاج إلى تحذير! يحدث هذا مع الشخص نفسه، أو مع الجماعة، أو الحزب، أو المذهب الديني.

علينا أن نتذكر أن سياسة التبرير مضللة، ويمكن أن يبرر الإنسان كل خطأ، ما لم يصارح نفسه، ويواجه الحقيقة.

إن الخطيئة التي اقترفها إبليس، وحلّت عليه اللعنة بسببها عمل إبليس على تبريرها: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، فهو لم يسجد، وعصى ربه، ثم لم يعترف بخطيئته ومعصيته، بل ذهب يفلسفها ويبرر لها، بخلاف آدم -عليه السلام-، الذي واجه خطأه بالاعتراف، وصحح زلّته بالتوبة:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا
 عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

تبرير الأخطاء، واتهام الناقد، والهروب من مكاشفة النفس بأخطائها،
 والجرأة على تصحيحها هي الأخرى خطأ لن تعترف به النفس التي
 أدمنت تبرير الخطأ، وعدم الاعتراف به، وهذا ما يجعل المشكلة عvisية
 على المعالجة.

متى كان آخر خطأ اعترفت به دون تبرير للخطأ أو اتهام للناقد؟ هذا
 السؤال يساعد على اكتشاف المشكلة ومعرفة حجمها !

المدمن على النقد:

كما أن النقد يبعث ألماً وندماً للمنقود، فإن فيه لذة ومتعة للناقد، تصل
 هذه المتعة إلى إدمان يستوعب غالب وقته وجهده؛ ففيها قدر من الاستعلاء
 والأستاذية، وفيها تهوين لما فاته من شرف العمل، وفيها مخاطبة لأهواء
 النفس التي تحمله هنا على إدمان النقد، وتحمله هناك على الغيبة أو السخرية.

الغبية هي كشف للعيوب، ولكن على سبيل الهوى والفساد، لا النصيحة والإصلاح، ومن أسرف في النقد شقَّ عليه العمل، ولا يستطيع العامل أن يدمن على النقد؛ لأنه مشغول بعمله، إنما يدمنه البطالون، وأصحاب الألسنة الحداد، هم الأجبن وقت الحاجة للبأس والقتال، وهم الأبخل وقت الحاجة للإنفاق: ﴿إِذَا جَاءَ لُتُوفُ رَأْيِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ لُتُوفُ سَلَفُوهُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩].

الإدمان على النقد قد يقع فيه بعض الصالحين أيضًا، فينبأ بعمل غيرهم في مشاريع الإفساد، يكتفي هؤلاء بإدمان النقد، وهذا الإدمان يوهمهم أنهم في مشروع نافع، فالتحذير والنقد ليس مشروعًا حقيقيًا يزاحم مشاريع الإفساد، أفضل نقد للفساد أن تقيم مشاريعك المنافسة في الإصلاح، ويبقى التحذير عملاً مُكمِّلاً لا يسوغ الاكتفاء به.

بثت بعض القنوات مسلسلاً تليفزيونياً فيه مخالفات شرعية كثيرة، وله أهداف في إفساد المجتمع، وفي كل عام، كان عمل الصالحين والغيورين الانهماك في التحذير منه، ونشر الفتاوى المحرمة له، وبعد سنوات طويلة، ظلَّ المسلسل على حاله، والتحذير على حاله، دون أن ننجح في بناء مشاريعنا وخبراتنا المزاخرة والمدافعة لهذا الفساد.

لقد كان الواجب عدم الاكتفاء بالتحذير، بل الشروع في الإنفاق من المال، والوقت، والجهد، والخبرة، في بناء مشروع آخر، ينافسه

على مخاطبة المجتمع، ويتضمن القيم والمعاني الجميلة التي يحتاجها المجتمع المسلم.

النقد النافع بناءً وإيجابيةً وعملٌ، وليس تحذيرًا فحسب.



النقد غير الموضوعي:

لا علاقة لنقده بالموضوع، يكفي سببًا للنقد والرفض أنه صادرٌ من ذلك الشخص، أو تلك الجهة، هذا النقد يصعب معالجته، أو الاستفادة منه في تطوير العمل، هو نقدٌ جائرٌ، نقدٌ دائمٌ، سواء أصبت أم أخطأت، والعاقل ينتفع بالنقد الصحي، في تطوير العمل وتدارك الخطأ، ويتنفع بالنقد الجائر في تحفيز الهمة والتحدي والإصرار.

لقد كان المسلمون الأوائل يتعرضون لنقدٍ غير موضوعي، يستهدف أشخاصهم وذواتهم، دون النظر للموضوع والعمل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. لقد نقدوا الدين الذي ذهب إليه غيرهم،

دون النظر في أدلته وبراهينه، يكفي في نقده أنهم سبقوا إليه، وكأن الحق،
والخير، والهدى، مرتبط بذواتهم دون غيرهم !

يظهر هذا النقد غير الموضوعي حين تشاهد بعض الكتابات الناقدة
لبعض المشاريع الدينية، فهو نقدي يستهدف (الإلغاء)، وليس (الإصلاح)،
ولكن من العقل والدين والحكمة أن نقبل الحق ولو كان عن طريقٍ لا
يريد الحق، وأن نُصرّ على مواجهة هذا النقد الجائر غير الموضوعي، بمزيد
من الثبات على الحق، وتطوير العمل وإتقانه.

اختبار النقد:

لا يترك الناس النقد مهما بلغ الشيء إتقاناً وإبداعاً، وحتى يتمايز النقد
العملي العادل من النقد الظالم، يأتي سؤال ما البديل؟ ما الحل؟

أمام هذا السؤال، يسقط نقد البطالين الذين ينقدون لمجرد النقد،
ويسقط نقد المناوئين الظالمين الذين ينقدون ظلماً وعدواناً، حتى الحسنة
تتحول في أعينهم إلى سيئة:

إذا محاسني اللاتي أدلُّ بها كانت عيوباً فقل لي كيف أعترض؟

والقرآن واجهَ النقدَ الجائر بمثل هذا: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النقص: ٤٩]. بمثل هذا، تسقط أشباه الحجج، ويتعرَّى النقد الظالم.

إنَّ النقدَ يجب أن يكون عملاً ببناء، وليس تعليقاً عابراً يسجل تحفظه ورفضه فحسب.

التفكير في البديل والحل ينفع الناقد والمنقود، ويحول النقد من حالة نفسية متحفظة على التجربة فحسب، إلى عمل فكري يساعد التجربة على تجاوز أخطائها، وتحسين أدائها.

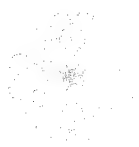
في موقف لطيف مع أحد طلبة العلم، كان ينتقد مفتياً يظهر في برنامج الإفتاء، ثم استرسل في نقد غيره، حتى أتى على جميعهم وهو لا يشعر، فسألته: من تراه مناسباً للإفتاء في هذا البرنامج؟ فذهب الحديث وجاء، دون أن يعثر على أحد! مثل هذا النقد لا يساعد على تطوير العمل، ولا ينفع القائمين عليه.

لن يترك الناس النقد الجائر، ولن يتميز النقد العملي العادل من النقد السطحي والجائر، إلا بمثل هذا الاختبار: ما البديل؟ ما الحل؟



الوقفة السادسة

الحقوق



الحقوق والأخلاق فوق الخلاف:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

هذه الآية أصلٌ في علاقة الخلاف بالحقوق، وعلاقة الخلاف بالأخلاق. لا يوجد خلاف أعظم ولا أكبر من الشرك بالله تعالى، هو الذنب الأعظم، والظلم الأكبر، ثم يجمع مع هذا الشرك دعوة إليه، وإلحاحًا ومجاهدة عليه.

لقد بلغ بذلك الذروة من الخلاف، وكل خلاف يتطامن أمام هذا الخلاف، ومع ذلك لا يسقط حق الوالدين في الصحبة بالمعروف! هذا هو دين الله الذي نفاخر به الناس! الذي لا يُسقط الحقوق من أجل الخلاف، ولا يترك الأخلاق من أجل الخلاف، بالغًا ما بلغ هذا الخلاف.

فإذا وجدت تدينًا ينتهك الحقوق، ويتجاوز الأخلاق باسم الغيرة على دين الله، فانطق بلسانك وقلبك: سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

هل هناك أشد غيظًا وحنقًا من رجل تقبض عليه في أرض المعركة،

قَطَعَ الْفِيَّافِي وَالْقَفَّارَ مِنْ أَجْلِ قَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبَى النِّسَاءَ ؟! فَإِذَا تَمَكَّنْتَ مِنْهُ، وَشَدَّدْتَ عَلَيْهِ الْوُثَاقَ، وَأَصْبَحَ أَسِيرًا فِي يَدِكَ، كَانَ الْإِحْسَانُ إِلَيْهِ -مَعَ شِرْكِهِ- طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حَيْثُ وَنَسِكِنَا وَيَسْكُنُ أَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. قَالَ قَتَادَةُ: لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْأَسْرَاءِ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِمْ، وَإِنْ أَسْرَاهُمْ يَوْمَئِذٍ لِأَهْلِ الشَّرْكِ.

ومهما تذكرت أحبابك الذين قضوا نحبهم في تلك المعركة، والأطفال الذي تيتموا، والنساء الذين ترملوا، وشركه بالله العظيم، وحربه للمسلمين، فإن ذلك كله لا يبيح إسقاط الحقوق والأخلاق. ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].



ليس علينا في الأميين سبيل:

الأمانة وحفظ الحقوق لا يُلغِيها الخلاف، ولو كان خلافاً في الدين، وقد كان بعض اليهود يستحلون الحقوق بحجة الخلاف في الدين، كما وصفهم الله في كتابه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إن الله لا يأذن بتضييع الأمانة، وانتهاك الحقوق، ومن نسب ذلك إلى الله فقد أعظم على الله الفرية. يستعصي الخطأ عن التصحيح حين يُنسب للشريعة كذبا وزورا، وهذا سبيلٌ قديمٌ يحتاج إلى يقظة ومحاذرة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وفكرة ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ﴾ وإن كانت منسوبة لبعض اليهود، إلا أن بعض المسلمين يقع فيها أيضا؛ مصداقا لقول النبي ﷺ: «لَتَبْعُنَّ سَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. شَبْرًا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ. حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟» متفق عليه. وهذا يوجب الحذر التام من دخول هذه الفكرة إلى الفروع الفقهية، وضرورة المراجعة المستمرة للتراث والفتاوى؛ فإنها ليست قولاً مرجوحاً، بل كذب على الله.

لقد كان أعلام الأمة في الصدر الأول، على يقظة تامة من استحلال بعض الحقوق بحجة الخلاف ولو كان في أصل الدين، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن خبر الأمة وترجمان القرآن، عبدالله بن عباس رضي الله عنه، أن رجلا سأله فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، فقال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس! قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ﴾! إنهم إذا أدوا

الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وفي سورة الممتحنة نص القرآن على «حكم الله»، وفيه إعادة الحق لبعض الكفار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَيْتُمُوهُنَّ أَجْرُهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا إِلَيْكُمْ حُكْمٌ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

أحطت بما لم تحط به:

في مملكة سليمان -عليه السلام- كانت الحقوق محفوظة بشريعة الله وأمره، ولم يؤت أحدٌ من ملوك الأرض ما أوتي سليمان من الملك والقوة: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥) فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَإِلْفًا وَحُسْنَ مِثَابٍ ﴿ [ص: ٤٠]

وذاث يوم توعّد سليمان الهدهد وهو في غاية قوته وملكه، بوعيد شديد تنخلع له القلوب: ﴿وَنَقَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (النمل: ٢٠-٢١).

وفي مثل هذا الموقف، تُختبر العدالة وحفظ الحقوق - في حال التهديد والوعيد -، من أقوى ملوك الأرض، لطير ضعيفٍ مُستضعفٍ!

إن ذلك كله لم يَنْتَقِصْ من حقوق الهدهد شيئاً في مملكة النبوة، وجاء الهدهد في كامل حقوقه يقول للملك المهيّب: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَحِثُّكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي إِدْرِيسَ﴾ (النمل: ٢٢).

﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾!

هل نريد في حفظ الحقوق مشهداً أروع من هذا المشهد؟!

كم هي المسافة بين هدهد ضعيف وأقوى ملوك الأرض؟!

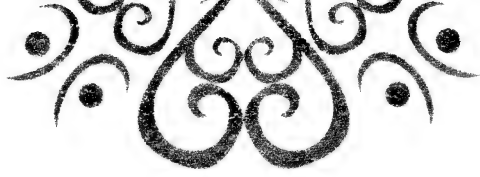
وكيف استطاع الهدهد في حال التهديد والوعيد أن يعبر عن موقفه بكل وضوح؟!

وكم هي الروعة والدهشة في مملكة النبوة حين حَفِظَتْ حقوق الهدهد

في الدفاع، والتعبير، ثم حفظت حقوق أولئك الذين اتهمهم الهدهد
بالشرك ولم تبادرهم بعقوبة حتى تثبت؟!!

إن المسلم اليوم يتمنى أن يحصل على بعض حقوق الهدهد في مملكة
سليمان عليه السلام !

لقد أضاع العالم الإسلامي حقوق الإنسان، وحقوق الحيوان، واستبد
منطق القوة والغلبة، حتى غدت الحقوق بضاعة غريبة ! وما هي بغريبة،
بل هي شريعة الله التي أنزلها في كتابه، وامثلها أنبياءه، ولكن أكثرهم لا
يفقهون!



الوقفة السابعة

العدل



العدل في الحكم والإجراءات:

بقراءة النصوص المستفيضة في الأمر بالعدل، وتحريم الظلم، والوقوف على تفاصيل العدل في أحكام الشريعة، وآثاره الحسنة في الحياة، وشؤم الظلم وآفاته على الناس، بعد ذلك كله تفهم كلمة شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «جماع الحسنات العدل، وجماع السيئات الظلم، وهذا أصل جامعٌ عظيم».

وفي الحديث القدسي الصحيح ما يُزلزل القلب في تعظيم الظلم والتحذير منه: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا». من يجروء بعد ذلك - وهو في عقله ورشده - أن يظلم؟! بعدما حرم الله الظلم على نفسه سبحانه، وحرمه على خلقه. إن هذا الأسلوب في تحريم الظلم يكشف حجم التحريم ورسوخه.

ومع علمه التام سبحانه بمن يستحق النعيم ومن يستحق الجحيم، إلا أنه سبحانه من تمام عدله أظهر دلائل العدل وأبائها، فاستنسخ الأعمال، واستشهد الشهود، ونصب الموازين، ولم يدخل إلى النار إلا من استحقها، وأظهر استحقاقه لها بالعدل ودلائله. قال الله تعالى: ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يُنَاطِقُ

عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿﴾ [الحاقة: ٢٩]، وقال تعالى:
﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا نِعَاذِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٩].

واستشهد عليهم سبحانه شهودًا من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا
جَاءَ وَهَاشِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

ونصب الموازين القسط، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ
لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، إلى غير ذلك من
الآيات الكثيرة.

وهذا كله يرسخ أمرين مهمين:

١- وجوب العدل وتحريم الظلم.

٢- أنَّ العدل وحده لا يكفي حتى تظهر دلائله وتشهر بيناته،
ويستمسك بإجراءاته وقوانينه، وأن الذي يحكم بالعدل مقصر حتى
يلتزم في حكمه هذا طريق العدل، وإجراءاته، وقوانينه.

وما أحوج الخلق للعدل، وما أحوج العدل للالتزام بطريقه ودلائله وإجراءاته، ولا يكتمل العدل إلا بالإجابة الصحيحة على سؤالين:

- كيف حكمت؟ وهنا تظهر إجراءات العدل المحايدة والمستقرة والمعلنة.

- ماذا حكمت؟ وهنا يظهر الحكم العادل بعد الالتزام بطريق العدل وإجراءاته.

ما خطبك يا سامري؟

السؤال والتثبت قبل الحكم والعقوبة - مهما كان الجرم -، هذا قانون العدل الذي لا يتخلف. لقد سأل الله إبليس حين لم يسجد - وهو أعلم به سبحانه - قبل أن يعاقبه بما يستحقه من اللعن والطرْد: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ ۖ أََمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

وموسى عليه السلام فُجِعَ بفتنة قومه وعبادتهم للعجل، وغضب من ذلك غضبا شديدا، ومع ذلك سأل السامري صاحب الفتنة: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْـمِرِي ۚ ﴾ [طه: ٩٥].

ورسول الله ﷺ هذا شأنه ودأبه، ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة الشهيرة، وفيها وقع حدث عظيم، وفي ظرفٍ بَلَغَ الغاية في الحساسية والخطورة، مما يجعل العادل يذهل عن السؤال قبل أن يحكم، ورغم ذلك حافظ رسول الله ﷺ على هذا القانون العادل، وسأل قبل أن يحكم بشيء: «يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟».

العاقل خصيم نفسه:

الإنسان دون دين وعقل ظلومٌ جهول، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «والإنسان خُلِقَ ظَلُومًا جَهُولًا، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشر، فيحتاج دائمًا إلى علمٍ مفصل يزول به جهله، وعدلٍ في محبته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته، فكل ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علم يتنافى جهله، وعدل يتنافى ظلمه، فإن لم يَمَنَّ الله عليه بالعلم المفصل والعدل المفصل، كان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصراط المستقيم».

أما الموفق، فإنه خصيم نفسه، يقضي على نفسه بالعدل قبل أن يخاصمه أحد، ومن ذلك ما وقع بين موسى والخضر، فقد قال موسى من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْنِجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، وهذا من اقتفاء العدل، ومخاصمة النفس، دون أن يحتاج صاحب أو الشريك أو المخالف إلى المخاصمة أو المقاضاة، وتلك منزلة الكبار، الذين خرجوا من سلطة الهوى وشهوة الظلم إلى مقام العدل والإنصاف.

ومن رحمة الله: وجود أهل العدل في الناس، وإلا تقوّضت الحياة وفسد نظامها: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]. والأنبياء بعثوا لإقامة العدل، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]. وولاة الأمر مأمورون بأمر الله تعالى بالعدل في الرعية، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال ابن جرير -رحمه الله-: «إن الله يأمركم يا معشر ولاة أمور المسلمين... ويأمركم إذا حكمتم بين رعيتم أن تحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، وذلك حكمُ الله الذي أنزله في كتابه، ويئنه على لسان رسوله، لا تعدوا ذلك فتجوروا عليهم».

وأخطر شيء يصيب العباد والبلاد، وينشر الفساد، أن يفسد القضاء؛ فهو المعوّل عليه -بعد الله- في فصل النزاعات، وحسم الخلافات، فإذا فقد الناس الثقة في القضاء، وأصبح القضاء منحازاً لطرفٍ دون طرف -ولو كانت السلطة-، فإن الناس -حيثُذ- سيحتكمون للقوة والغلبة، فإن استطاعوا حينها فالفتنة والفوضى، وإن لم يستطيعوا تراكمت ظلمات الناس في نفوسهم، وضاعت صدورهم بالغبن والقهر، حتى تحين ساعةٌ ضعفٍ، فيتحكم الانتقام والثأر، وتلك مصيبة على البلاد لا تقل شؤماً عن الظلم الأول. إن جهاز القضاء هو السدُّ الأخير بين الناس والفتنة، فإذا عبثت الفئران في هذا السد، وغفل الناس عنها، تهاوى السد الأخير في لحظةٍ من الزمان وبغطة.



ظلموا أنفسهم:

لو يعلم الظالم ما ينتظره من النكال والوبال، لعلم أنه إنما يظلم (نفسه)
قبل أن يظلم غيره !

قال الله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَبَّيْتَ
لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال
تعالى: ﴿ فِتْنَتُكَ يُثَبِّتُهَا يُمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

وأعظم الظلم: الشرك بالله، نعوذ بالله من الظلم كله،
دقيقه وجله !

ومن العَجَب أن نصوم يوم عاشوراء في كل عام، ونفطن لعبادة الصوم،
ونغفل عن شؤم الظلم، وربما وجدت الرجل يصوم يوم عاشوراء وهو
مقيم على ظلمه !

وما أصاب فرعونَ البوارِ والدمارِ إلا بسبب ظلمه وجوره: ﴿ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

ما حظّ مساجدنا ومدارسنا من التحذير من الظلم؟! الظلم للعامل، والخدمة، والموظف، والابن، واليتيم، والمسكين، وللأسف الشديد أنك تجد التحذير من قضايا اجتهادية تملأ اللوحات الدعوية، ثم تبحث عن التحذير من الظلم فلا تجد ما يكفي ويشفي، وربما وجدت بعضنا يتورع عن الإخلال بمظهره في الثوب واللحية - وهذا خير-، ثم لا يأبه بظلم العامل أو الموظف. «والظلم ظلمات يوم القيامة» كما قال ﷺ.

وخير ما يورثه الوالد لولده سيرة العدل، والأمر به: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، وللأب الصالح حفظ ورعاية تلحق ذريته على ضعفهم، وتحفظ حقوقهم من بعده: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح.



لِلْمَظْلُومِ سُلْطَانٌ رَبَّانِي:

العاقبةُ للمظلوم، ودعوة المظلوم لا ترد، وليس بينها وبين الله حجاب، ونصرة المظلوم أمرٌ شرعي، وقدرٌ كوني: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، ففي شرع الله جعل الله لولي المقتول سلطانًا على القاتل، فإما القتل أو الدية أو العفو، وأخبر سبحانه بنصرة المظلوم، وهذه النصرة تكون في الوقت والطريقة التي يقدرها الحكيم القدير.

ولاشك أن على المظلوم أن يعمل الأسباب في رفع المظلمة، وألا يتكل على النصر المحض من رب العالمين؛ فقد جرت العادة أن النصر من رب العالمين يحتاج لبذل السبب حسب الوسع والطاقة، حتى المعجزات الربانية لأنبيائه ورسله فيها شيء من العمل، فموسى - عليه السلام - نصره ربه على القوم الظالمين، لكنه عمل بالأسباب إلى أن ضرب بعصاه البحر، وقد كان الله قادرًا على أن يفلق البحر دون أن يضربه بعصاه. ومريم - عليها السلام - في حال مخاضها وآلامها جاءها الأمر: ﴿وَهَرَيَّا إِلَيْكَ يَحْذَعُ النَّحْلَةُ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]،

فجعل هزّ الجذع سببا في تساقط الرطب. إنّ الانتظار المحض للنصر عمل غير شرعي، بل العمل ما أمكن، حتى يأذن الله بنصره وفرجه.

ومن الخطورة بمكان أن يتحول المظلوم إلى ظالم، جرّاء الثأر والتوسع في أخذ الحق، ولذلك جاء الأمر الرباني: ﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وكم يشهد الواقع من إسرافٍ في القتل، والتذرع بالمظلومية في ظلم الخلق.

وحين تشاهد ما يحصل في الشام هذه الأيام، وتسمع حجج البغاة والقتلة ممن ينتسب للجهاد في سبيل الله، تجد كثيرا من الظلم يقع منهم باسم الرد، وأخذ الحق، والانتصار من الظلم، وما لم تكن هناك جهة محايدة لا يُقتاتُ عليها، وهي التي تحدد المظلّمة والظالم، فسيظل كل ظالم مهما بلغ ظلمه يمارس الظلم والبغي والقتل، باسم المظلومية وأخذ الحق، والله المستعان!

بسم الله الرحمن الرحيم



يوم الدين:

لا يكتمل العدل إلا في ذلك اليوم؛ ففيه يأخذ المظلوم حقه كاملاً وافيًا، ولا تستقيم الحياة الدنيا دون إيمان بيوم الدين؛ ففيه عزاء لكل مظلوم، وردعٌ وزجر عن الظلم.

إن الإيمان بيوم الدين ليس معلومة باردة في الذهن، بل هو معنى يبعث الحياة في الروح، ويمدُّها بأسباب الصبر والحياة، ولا بد أن يُشَرِّق هذا المعنى على القلب كل يوم وليلة سبع عشرة مرة، ففي كل ركعة يستذكر المسلم ويستحضر بقراءته لسورة الفاتحة «يوم الدين»، فيتعزى المظلوم، ويرتدع الظالم. وفي الدنيا ينتقم الله من الظالم ويتنصر للمظلوم، ولكن لا يتمحض ذلك ويكتمل إلا في يوم الدين. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۝﴾

[إبراهيم ٤٢-٤٣].

إن من المظالم ما تأخذه اليوم.. ومظالم أخرى لها موعدٌ مهيب، مواعدها يوم الفصل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ يَوْمَ أُخْلِتَ ۝﴾ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝

[المرسلات: ١٢-١٤].

لقد جُعِلَت المحاكم للفصل بين الناس في الدنيا بالعدل والحق،
وكم يقع في المحاكم من المظالم، فرب ظالم ألحن بحجته من مظلوم،
ورب قاض يقضي بين الناس بالجهل أو الهوى، فيضيع الحق، وترتبك
العدالة، ويُعَبِّن الناس في حقوقهم.

كثيرا ما كنت أسمع حديث رسول الله ﷺ: «قاضيان في النار،
وقاضٍ في الجنة، قاضٍ عرفَ الحقَّ فقَضَى بِهِ فهو في الجنة، وقاضٍ
عرفَ الحقَّ فجَارَ مُتَعَمِّدًا أَوْ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فهما في النار»، وكنت
أحسب أن العلم هو العلم بأحكام الشريعة، وهو من العلم
الواجب -ولاريب-، ولكن هناك علم آخر في غاية الوجوب
الشرعي، ويحصل فيه من التقصير ما يحصل، وهو العلم بالقضية
محلّ الدعوى، فكثيرا ما يتم التقصير في تصورها واستيعابها، ويدخل
مثل هذا في القضاء بلا علم؛ فيخسر صاحب الحق قضيته بحكم
المحكمة، التي جُعِلَت لإحقاق الحق وإبطال الباطل. هنا يتذكر
المؤمن أن الدنيا لن يستتم العدل فيها، ويتذكر يوم الدين، حيث
يجمع الخصوم مرة أخرى للخصومة عند رب العزة والجلال:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

[الزمر: ٣٠-٣١]، ومن كسب الخصومة اليوم بالظلم، فموعه يوم الدين

حيث لا يكسب إلا صاحب الحق والعدل.



ويل للمطففين:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (٦)﴾ [المطففين: ١-٦]

العدل مطلوبٌ في كل شيء، وقد توعد الله من ترك العدل في مكياله وميزانه، فنقص أو استوفى على غير العدل والإنصاف.

لولا أن الأمر بالعدل راسخ في كل الشرائع السماوية، لم يصل الوعيد على من خالفه إلى هذا الحد، فإن التطفيف في بادئ الرأي عمل خفيف ليس من أولويات الإصلاح، أما في شريعة الله فإن مفارقة العدل ولو كانت تطفيفا في الميزان والمكيال جريمة تستحق هذا الوعيد، وهي من أولويات الإصلاح، فتبدأ السورة بالوعيد والتهديد حماية لحقوق الخلق، وإقامة لميزان العدل، ومن قبلُ أرسل الله شعبا إلى قومه؛ هاديا ومبشرا ونذيرا، فجاءت دعوته بالتوحيد، وتصحيح ما أفسدوه من أمر العدالة في بيعهم وشرائهم: ﴿وَلِئَلَّكَ مَدِينُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وَالْمِيزَانِ وَلَا يَخْشَوُا النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

والتطفيف يكون في كل شيء بالتعامل غير العادل، فيحاسب نفسه
بميزان، ويحاسب غيره بميزان آخر، ومن أمثلة ذلك: حين يخطئ أحد من
طائفتنا، نقول: لا يمثل إلا نفسه، وحين يخطئ رجل من مخالفينا، ننسب هذا
الخطأ لهم جميعا. حين نخطئ نعتذر بالنية الطيبة، وحين يخطئ غيرنا فالنية
الطيبة لا تكفي. وفي الإعلام: يرون اقتحام المساجد وتحريقها فيعتبرونه
خلافاً سياسياً فحسب، ولو حُذفت الكنيسة بحصاة لاعتبروا ذلك إرهاباً
دينياً. وهناك تطفيف في الورع والحسبة؛ فإنه يرى الظلم والبغي على أحد
الفضلاء ولا يهتز ضميره، فإذا سمع الدفاع والثناء أدركه خوف الغلو
فأنكر! وهناك تطفيف في العلم، فتجده يستدل لقوله بقول الصحابي مثلاً،
فإذا استدل به مخالفه في مسألة أخرى قال: قول الصحابي ليس بحجة!

وأغلب التناقضات العائدة إلى محاباة النفس أمام الآخرين تدخل في
عموم التطفيف، وتدخل في الظلم المنهي عنه، وعاقبة الظلم وخيمة،
والويل والشور للمطففين.

يبقى هنا أن نقول: إن الظلم والتطفيف لا يزول بالقانون وحده، بل
لابد من الوعظ والتذكير بيوم الدين، ويوم البعث، يوم يقوم الناس لرب
العالين. من المهم أن تأخذ هذه المعاني حظها في الخطب والمحاضرات؛

فإن الفطرة تتكس فتحسب التطفيف حذقاً وظُفراً، وهو الخسار والبوار،
وفي سورة المطففين جاء التذكير بموعده لقائه والقيام له سبحانه.



بعض المساواة ظلم:

لن تدخل مدينة العدل والفهم حتى تطرُقَ هذا الباب: ﴿لَيْسُوا
سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. الكره لا ينبغي أن يجعل أعداءنا على
السواء، والحب لا ينبغي أن يجعل أصدقاءنا على السواء، ومن
عدل الله التام أن فارقَ بين أهل السيئات وأهل الحسنات:
﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَعَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ثم
من عدله أن فارقَ بين أهل السيئات في دركاتهم بحسب اختلافهم
في الإثم والسوء في الدنيا، كما فارقَ بين أهل الحسنات في درجاتهم
بتفاوت حسناتهم وأعمالهم: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ
وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

المساواة في الحكم مع اختلافِ العملِ ظلم، والعدلُ أن يُعطى كل
ذي حق حقه. هناك حاجة فطرية للعدل يُعبّر عنها بالمساواة في بعض

الأحيان، وكلمة العدل أدق وأصدق من كلمة المساواة.

وفي ثورة الشعوب الأوروبية كانت الحرية والمساواة والإخاء شعارًا تهفو إليه النفوس، والمساواة هنا بمعنى: العدل، فهي وقوف الجميع أمام القانون على السواء، ومحاربة التمييز العنصري، الذي يفضل شخصا لونه أو عرقه، وهذا هو العدل، ومن غير المناسب في مثل هذه الحالة محاربة هذا المصطلح الدال على معنى العدل؛ فإنها كلمة شاعت وذاعت وأصبحت معلِّماً في التاريخ، ومخالفة هذا الاسم تعطي فكرة خاطئة، وكأننا ضد العدل وضد الفطرة، وإن كان في مضامين المساواة ما يستحق الاعتراض، كالمساواة التامة بين الرجل والمرأة في الميراث - مثلاً -، وهو ضد الشرع وضد العدل؛ فيُعتَرَض على هذه الفكرة بخصوصها دون أن نحارب معنى فطرياً صحيحاً، وإن تركوا اسمه الفاضل واستعملوا اسمه المفضول.

إنما المساواة الخاطئة ما كانت بديلاً عن العدل، مثل الحكم المجمل الذي يساوي بين قومٍ مختلفين ومتفاوتين، أما المساواة البديلة عن التمييز الجائر، والتسوية بين الناس أمام القانون فهذا معنى صحيح لا يخالف شرعاً ولا عقلاً.



وبعض الحياد ظلم:

من معاني الحياد الجميلة: ألا تميل مع أحد الطرفين لهوى أو مصلحة، بل تقف منهما على مسافة واحدة، وهذا من العدل، لكنه يصبح ظلماً حين يستمر هذا الموقف المحايد حتى بعدما يتبين الظالم من المظلوم. هنا يجب أن يكون لك موقف إيجابي لمصلحة المظلوم وصاحب الحق، تفرض هذا الموقف قيم العدالة والإيجابية، ومن استمر في موقفه المحايد بين الطرفين فقد تجاوز العدل إلى الظلم، وشارك الظالم في ظلمه، بتفريطه في نصرة الحق وأهله.

أخطر من الظالم طرف ثالث يلوم الظالم والمظلوم، فهذا ظالم يلبس ثوب الحياد والعدالة، وهذا من ظلم القضاة، وهو أشد خطراً من ظلم الخصوم، فالطرف الثالث هو في مقام القاضي الذي يحكم بين الطرفين، ويساعد المظلوم، ويكف بأس الظالم، فإذا لأم الطرفين، أو أعرض عنهما، فقد اقترف ظلماً خاصاً له أمله الخاص في نفس المظلوم.

لا يزال الناس يتذكرون شؤم التصريحات الروسية وهي تتظاهر بداية الأزمة السورية بالحياد بين نظام قاتل ظالم غاشم معتد، وشعب أعزل مظلوم

مضطهد، لقد كانت تصريحاتهم مضرب المثل للظلم الذي يلبس ثياب الحياد.

وفي القرآن منهج واضح للتعامل مع أطراف الأزمة، يُفصّل العدل تفصيلاً: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، وفي هذه الآية يظهر أن استمرار الحياد وعدم اتخاذ موقف بين الطرفين نوعٌ من الظلم والضعف، بل الواجب أن يتخذ الطرف الثالث موقفاً واضحاً، ينصر به صاحب الحق، ويقاوم به صاحب الظلم.

ويظهر في هذا النص الشريف أن الصلح عمل جليل، يتطلب العدل مع القوة التي تفرض هذا العدل، كما قال عمر رضي الله عنه في رسالته لأبي موسى الأشعري: «فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له»، وذلك ما يغيب عن جماعة من المصلحين، حين يكون المصلح لا يملك سوى الكلمة الطيبة، وهذا يجعله يخضع لشروط القوي بُغية إتمام الصلح، فيتم الصلح -إن تم- على غير العدل، وربنا يقول: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

إن الحياد المطلوب هو في البعد عن الهوى، وعدم الانحياز لأحد الطرفين قبل أن تبين الحقيقة، كما يعمل القاضي مع خصومةٍ ما حال المرافعة

والمدافعة، أما بعد ظهور الحق فإن الحياد - حينئذ - نوعٌ سيء من الظلم، يشبه ظلم القاضي الذي سمع حجج الطرفين، ثم ساوى بين الظالم والمظلوم.

وبعض المحايدین الظالمين بحيادهم يحتجون لأنفسهم بالأخطاء التي ارتكبها كلا الطرفين، وكأنه لا يدري أن نصرة المظلوم لا يشترط فيها عصمة المظلوم من الخطأ، وسلامته ونقاؤه التام، فمثل هذا الشرط يمنع نصرة المظلوم؛ فإنك لن تجد معصوماً تنتصر له، وفي القرآن وصف الله انتصار الكفار من الروم على الكفار من أهل فارس بأنه نصر الله، وأنه يوم فرح للمؤمنين.

فالعدل أن تقف بجانب المظلوم، وجانب الأقرب للحق والصواب، وربما انتصرت لصاحب الخطأ؛ لأن مقابله صاحب خطايا، ولا ينقضي عجبك من قوم صالحين يقفون ضد أقرب الفريقين إلى الحق، ويخذلونهم بحجة بعض الأخطاء، ولا يدرون أنهم بهذا الصنيع ينصرون الأكثر ظلماً وخطأً وهم لا يشعرون، وبعضهم يمارس دور النقد الذاتي - بزعمه - في وقت توجب الشريعة فيه مقام العدل والنصرة، فيضيّع فريضة العدل بتشاغله بالنقد والتصحيح في غير حينه ووقته.



العدل والاعتدال:

العدل أخو الاعتدال، فيرى الحسنات ويرى السيئات، ويحكم للأغلب منها. ومن الناس من يظلم الفضلاء، ويتنقص من مقامهم؛ لأخطاءٍ وجدها عندهم، وهو مرتاح الضمير في انتقاصه لهم؛ اعتماداً على هذه الأخطاء التي تحقق من وجودها، ويقع هذا كثيراً من المتجربين على صحابة رسول الله ﷺ، فتجد أمثلهم طريقةً من يُتعب نفسه في البحث والتنقيب في بطون الكتب؛ حتى يتحقق من بعض الأخطاء، فإذا تحقق من وجودها سمح لنفسه أن ينتقصهم ويزدريهم، وما هذا سبيل العدل؛ فإن العدل لا ينظر بعينٍ واحدة، ولا يكفي ببعض الأخطاء في إسقاط الفضل والعدالة، بل يرى الحسنة والسيئة، ويدرك ما يعترى العمل من ملابسات وعوارض، ويحكم للأغلب منهما، وقد قال الله عن خيرة خلقه، الداخلين في رضوانه وجنته:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦]، فهو لاء لهم سيئات بصريح الآية، ولم تحل هذه السيئات بينهم وبين الجنة والرضوان؛ حيث غلب فضلهم، ورجحت حسناتهم، وأولى من يدخل في هذه الآية هم

أصحاب رسول الله الذين آمنوا به وعزروه ونصروه وأولئك هم المفلحون.

إن الاصطفاء والاختيار الرباني لا يلزم منه السلامة والكمال، كما هو الحال في بني إسرائيل، وقد قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَرَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

والعدل يقتضي التمييز بين الفاضل والمفضل: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَكْثَرُ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: ١٠]، وهذا السبق والفضل لبعضهم لا يسمح لنا أن نقدر في بقيتهم، كما قال الله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، فالعدل الذي يميز الفاضل هو الذي يمنع من الإساءة للمفضل.

ومما يدل على أهمية العدل والاعتدال، ما هو مقرر من تفاضل رسل الله، فقد فضل بعضهم على بعض، كما قال الله: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهذا التفاضل بينهم لا يُجيز عدم الإيمان ببعضهم: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ومع العدل الموجب للتفضيل، يأتي الاعتدال الموجب للأدب مع الفاضل والمفضل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود،

فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً ﷺ على العالمين، في قَسَمٍ يُقَسَمُ به، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال: «لا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعَقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَنْتَى اللَّهَ» (رواه الشيخان). وقد ذكر العلماء أن التفضيل على وجه الحمية والعصبية منهى عنه، فإنه مشعر بتقصُّص المفضول، فالعدل واجب، ولا يستغني العدل عن الاعتدال والأدب.

العدل فوق مشاعر الحب والكراهية:

يتساوى الناس في حب العدل والمطالبة به حين يحتاجون إليه، ثم يفترون حين يكون العدل مخالفاً لمصالحهم وأهوائهم، فيثبت أهل العدل المخلصون له، ويساقط المتشبهون بالعدل حين يوافق مصالحهم وأهواءهم. التحدي الأكبر حين يتواجه العدل مع الهوى وجهاً لوجه، ولذلك جاء التحذير واضحاً في القرآن من تأثير الهوى على إقامة العدل:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: ١٣٥].

والهوى ألوان ومسارب شتى، ومن ذلك: الكراهية والعداوة، فإن ذلك مظنة الحيف والجور، وأهل الإيمان هم أهل العدل حتى مع أعدائهم، ولا يستبيحون الظلم مع من فارقهم في الدين، وقتلهم عليه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨]. والشأن مظنة الظلم والحيف، فإذا كان الشأن في ذات الله، حيث فارقوا دينه، وقتلوا أوليائه، فإن الظلم حيث قد يتلبس لباس الديانة والبراءة من المشركين، وما كان الظلم ديناً لله، وما كان الجور قرينة لله، ولذلك جاء النص الواضح أن الأقرب لله هو العدل حتى مع الكافرين المناوئين لدين الله: ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، وبهذا لن ينفع التحايل على العدل، بإقامته ظاهراً والتحايل عليه باطناً، كما هو الحال في المحاكم الصورية، التي يقيمها المتغلب، ويتنقم من خصومه ويبطش بهم باسم العدالة، ورسوم المحاكمة، فالعدل في الإسلام دين لا يقبل التلاعب، والذي أوجبه ويحاسب عليه خير بما تعملون.

ومن الهوى: الحب والقراية، وقد يعدل المرء مع أعدائه، ثم يحايي أحبابه وقرباته، والعدل الذي يحبه الله أقوى من عاطفة الحب، كما هو أقوى من عاطفة الكره: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وإمام العدل هو محمد ﷺ، وقد أقسم -وهو الصادق المصدوق- أنه لن يتخلف عن العدل مهما بلغ حبه: «والذي نفسي بيده! لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (متفق عليه).

ومن مسارب الهوى الخفية التي تؤثر على العدالة -وجاء القرآن بالنص عليها-، التعاطف مع الخصم الفقير أمام الخصم الغني؛ فإن هذا التعاطف يلتبس بالمروءة والأخلاق، وربما هرب الإنسان من محابة الغني حتى وصل للتحامل عليه باسم النزاهة والعدالة، كل ذلك من الأهواء الخفية التي تعرض للعدل وتؤثر عليه، والله -جلّ جلاله- يقول: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَلَهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

والتجربة الإنسانية تثبت أن الهوى أغلب، وأن العدل ما لم يُجرَس بقوانين صارمة فإنه سيذهب ضحية الأهواء الخاصة.

لقد تطورت الخبرة البشرية في اكتشاف ضمانات العدل، ومحاربة الأهواء الخاصة في الحكم، واشترطوا في ذلك استقلال القضاء؛ حتى لا يكون أداة طيعة في الظلم، واشترطوا إجراءات كثيرة تجعل النظام مستعصيا قدر الإمكان عن الاستغلال، ومؤديا لدور العدالة بين الناس. نعم، إن كل ذلك لن يغني عن التقوى والنزاهة الشخصية، لكن النزاهة الشخصية هي أيضا لا تغني عن تطوير القضاء وإجراءاته بما يضمن سدّ الذرائع عن الظلم.

إن نظام القضاء في كل أمة شخصية اعتبارية تستطيع أن تصفها بالعدل أو الظلم، ومؤلم جدا أن تجد نظام القضاء عند بعض الكفار أقرب وأحكم

في تحقيق العدل من أنظمة القضاء في بلاد المسلمين. العدل شريعة الله، وكل ما يساعد على تحقيقه في الغرب أو الشرق فنحن أولى به وأجدر، والنصوص جاءت بالأمر به، والنهي عن اتباع الهوى، وعلى الأمة أن تطور أدواتها في تحقيق العدل ومحاربة الهوى، ومثل هذه الأدوات ليست من قبيل العبادات التي لا يجوز الزيادة فيها والنقصان، بل هي من الأمور المباحة والمصالح المرسلة، وقد نقل ابن جرير في تفسيره الآية النساء قولاً مُعبراً للزهري في تعامل السلف مع إجراءات العدالة، والحرص على النزاهة: «عن ابن شهاب في شهادة الوالد لولده وذوي القرابة قال: كان ذلك فيما مضى من السنة في سلف المسلمين، وكانوا يتأولون في ذلك قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ؕ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ؕ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا ۖ﴾ الآية، فلم يكن يَتَّهَمُ سلفُ المسلمين الصالحُ في شهادة الوالد لولده، ولا الولد لوالده، ولا الأخ لأخيه، ولا الرجل لامرأته، ثم دَخَلَ النَّاسُ بعد ذلك، فظهرت منهم أمور حملت الولاية على اتهامهم، فتركت شهادة من يتهم، إذا كانت من أقربائهم. وصار ذلك من الولد والوالد، والأخ والزوج والمرأة، لم يتهم إلا هؤلاء في آخر الزمان».

وجملة القول أن العدل مع الهوى في معركة دائمة، ولن ينتصر

العدل في الأمة حتى يحاصر الهوى في قلوب الحكام بالوعظ والتقوى والإيمان، ويحاصر الهوى في النظام بتطوير الإجراءات والاستفادة المستمرة من الخبرة البشرية، حتى نصل بإذن الله إلى نظام عادل، يقوم عليه رجل عادل.



العدل والإحسان:

الإحسان عدلٌ وزيادة، فإن من يُحسِّن لأخيه بفضلٍ أو عفوٍ فقد استكمل شرط العدل وزاد عليه، ولا تستقيم الحياة دون العدل والإحسان.

إن المجتمع بحاجة لعدلٍ يحفظ الحقوق، وإحسانٍ يجمع القلوب. ومن وصل إلى درجة الإحسان فقد تباعد عن الظلم، ورسخت قدمه في العدل. لقد رأيتُ بعض الفضلاء مهمومًا بالحقوق والعدل، وهو خير - ولا ريب -، لكنه غفل عن أن بعض معالجاتنا توصل إلى حد المشاحة والمقاطعة، حين نبالغ في التركيز على العدل ونغفل عن الإحسان، فالعدل محفوفٌ ومحفوظٌ بالإحسان، «ويبقى العود ما بقي اللحاء».

والإحسان يشمل مكارم الأخلاق من التغافل والتسامح والعفو والفضل، ولا تستقيم الأسرة الواحدة -فضلاً عن المجتمع- إلا بالإحسان.

وفي كثيرٍ من الأحيان تجد القربيين يحسب كل واحد منهما أنه مهضوم مظلوم، ولو أرادا أن يُجريا العدل دون إحسان لتقاطعا وتدابرا.

إن الذي أمر بالعدل هو الذي أمر بالإحسان، والعفو مندوبٌ إليه في الحقوق الواضحة البيّنة فكيف بالحق المختلف عليه؟!

ومن كمال الشريعة وتماها، وحسنها وبهاؤها، جاء العدل مقرونا بالإحسان، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقد روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكُنْزًا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

لقد غاب الإحسان وحضرت المشاحة والله المستعان: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

www.KitaboSunnat.com



الوقفه الثامنة

الحرية



الحرية والاتباع:

- القسمة ثنائية: فاتباعٌ للهدى أو اتباعٌ للهوى:

الحرية المطلقة لن تعثر عليها في الواقع، هي وهمٌ موجود في بعض الأذهان الحاملة فحسب، وهذا له نقاش آخر.

القرآن وهو أصدق حديثاً، وأعمق فهماً لهذا الإنسان، أخبر أن الجميع «مُتَّبِعٌ»، فإما أن يتبع الهدى، أو يتبع الهوى، فالإنسان تابعٌ متَّبِعٌ لا محالة، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وإذا كان الأمر اتباعاً لا محالة، فأن تتبع الهدى خيرٌ من أن تتبع الهوى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتِيٍّ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

[محمد: ١٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

واتباع الأهواء وأصحابها يحتاج إلى حذر دائم، وإلا سترل القدم، وتنحرف المسيرة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ومن ترك الهدى واتبع الهوى فإنه قد استحق العقوبة، ولن ينفعه جاه أو مال أو تاريخ سابق في الهداية: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

وفي الجملة فإن البشرية كلها ستفترق إلى طريقين: طريق الجنة، وهم: أتباع الأنبياء، وطريق السعير، وهم: أتباع الشيطان: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ تَبِعَكَ وَمَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

الحرية:

أما الحرية بمعناها الصحيح، فإنها فطرةٌ إنسانية، وأشواقٌ روحية،
وواجب شرعي، الحرية بمعناها المقابل للعبودية لغير الله، وليست الحرية
المرادفة للفوضى والعشية.

الحرية حياة.. وما الذي يُغري في الحياة إذا سلبوا منها الحرية؟!

إن الحرية متصلة بأصل التكليف لهذا الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَنِ
حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ
نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
[الإنسان: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ
بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وحين يفتح المسلمون بلادًا لا يُجبرون أهلها على الإسلام -ولا

يجوز لهم ذلك-، ولا يهدمون كنائسهم وبيعهم.. هذه معلومة حاضرة ومتداولة، لكن ينقصها التأمل والانتفاع، ما الذي راعاه الإسلام حين ترك بيوت عباداتهم الشركية وهو يقدر على هدمها؟! ما الذي راعاه الإسلام حين منع من إجبارهم على الإسلام وهو يقدر بقوة الحديد والنار على منعهم من اعتناق دينهم؟! الحرية بمعناها الصحيح راسخة في أحكام الإسلام، وبلغت حدًّا يصل إلى أصل الدين.

إن الذي حكى لنا فظائع اليهود وكفرهم، هو الذي أمرنا بتركهم على دينهم الباطل وعدم إجبارهم على تركه، مع دعوتهم بالحسنى للدين الصحيح.

والحرية كما أنها شرفٌ فإنها مسئولية، فيوم القيامة يُسأل العبد عن اختياره، ولا يكفيه عذرًا أنه أطاع وتابع السادة والزعماء: ﴿يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ١٦ ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٧٦].

في زمانٍ مضى كنت أقرأ المحاجة والخصومة في النار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا، وهي في مواضع عديدة في القرآن منها: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ ١٧ ﴿قَالَ الَّذِينَ

أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٧﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]،
 وكنت أفهم دخول الذين استكبروا في جهنم، وأجد في نفسي بعض
 التساؤل والتعاطف تجاه الضعفاء، مع يقيني التام بأنه لا يظلم ربك
 أحداً، وزال هذا التساؤل حين علمت أن الحرية تشريف وتكليف،
 وحين رأيت بعيني كيف يبيع بعض الأتباع عقولهم وتفكيرهم
 وإرادتهم، ويرضخون لأهل الباطل باسترخاء وتبعية وشهوة. في هذه
 الحالة أنت أمام خطيئة لا تقل عن خطيئة أولئك الطغاة، الذين تمكنوا
 من الطغيان بسبب هؤلاء الفاسقين: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

إن أعظم ما يمنح الحرية هو التوحيد، الذي يخص الله بالتعظيم
 والإجلال والتكبير، التوحيد القائم في القلب، وليس التوحيد الجاري
 على الألسنة فحسب، التوحيد الذي يحتاج إلى تعاهدٍ دائم بالصلوات
 والدعوات، والأذكار وقراءة القرآن. هذا التوحيد يمنح القلب
 حريته وحياته، وينظر للمخلوق مهما عظمت قوته نظرة المخلوق
 للمخلوق، وفي قصة الموحد مع المسيح الدجال - وقد أجرى الله على
 يده من الخوارق ما لا يملكه عظماء البشر - ظل العبد المؤمن صامداً
 شامخاً بتوحيده وحريته أمام فتنة الدجال وبطشه.

وللحرية أعداء يغتصبون الحرية، مثل الظلمة والمستبدين، وعداؤهم

للحرية واضحٌ بَيِّن، ولكن هناك لصوصٌ أخفيا يسرقون الحرية دون أن يشعر صاحبها، ومن هؤلاء اللصوص: الجمهور المحب؛ فإنه يجعل الرمز والمشهور في سجنٍ قضبانه من حرير، فيفقد الإنسان حريته مراعاةً لهذا الجمهور المبالغ في حبه، وكم تمرد بعض الشرفاء على قيود الطغاة واستبدادهم، ثم عجزوا أمام جمهورهم !

والمبالغة في الحب أو الكره سجنٌ آخر يسلب الحرية دون أن يشعر بها صاحبها؛ فالمبالغ في الحب «تابع».. ينتظر فعل محبوبه حتى يوافقه، والمبالغ في الكره «تابع».. ينتظر الفعل حتى يخالفه، والمعتدل في حبه وكرهه حرٌّ مستقلٌّ يصنع الفعل ويبني الرأي بعيدا عن الاستلاب لردة الفعل.

إن التعصب «أعورٌ دجال»؛ يطفى عين المحب عن الأخطاء فلا يراها، ويطفى عين الكاره عن الحسنات فلا يراها، ونعوذ بالله من كل أعورٍ دجال.

وهذا لا يختص بالأشخاص، بل هناك أفكار تأخذ صاحبها ومُعْتَنِقُهَا كأسرى حرب، فيظل في شَرَكِهَا لا يبرحها، وينظر للعالم من خلالها، ولا يسمح لنفسه باختبارها أو تطويرها. هذه أفكار انتهكت حرية الإنسان ولكن لا على وجه القوة والغلبة، بل على وجه التستر والخفية.

بعض النجاحات هي الأخرى تسرق الحرية، وهذا من المسالك الخفية

لسرقة الحرية! فما لم يغادر الإنسان نجاحه السابق ويشرع في نجاح جديد، فسيغدو أسيراً في نجاحه السابق لا يحسن أن يغادره، حتى تتحول حياته إلى حديث مكرور عن ذلك النجاح السابق. وقد اتهم بعض الشعراء قصيدة عمرو بن كلثوم بذلك.

بعض النجاحات تحول بين الإنسان وتطوير أدواته ومهاراته، وفتح آفاق جديدة في حياته، فحاذر نجاحاتك أن تسلب منك حريتك على حين غرة، فتكون الصفقة الخاسرة، فإن الحرية أغلى من تلك النجاحات.

إن المعروف بمحاربة الحرية هم الفراعنة في كل زمان ومكان، ولسان حالهم: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩].

أما الأنبياء فإنهم أهل الحرية وسادتها، حتى في خاصة أهلهم وأسرهم، وهذا مشهد عجيب يكشف جانب الحرية في تربية الأنبياء لأبنائهم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُنِي فِي الْمَسَامِرِ إِنِّي أَدْبَحُكَ فَأَنْظِرْ مَاذَا تَرَىٰ ٥ قَالَ يَتَابَتِ أَعْمَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهِ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَبَرَّهِيهِ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَتُوا لَلْمُيْنِ ﴿١٠٦﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٦]،

قد استأذنه وشاوره، وهذا قانون الحقوق والحرية، ولذلك كانت هنا

إرادتان مستقلتان: إرادة الأب، وإرادة ابنه، فكانت الاستجابة والفضل والشرف لهما جميعاً، كما قال الله: «فَلَمَّا أَسْلَمَا»: الأب وابنه.

وشبيهٌ بهذا الموقف في حفظ الحقوق وحرية القرار، كان في حضرة النبي الأكرم ﷺ، كما روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصبي منك أحداً، فتلَّه رسول الله ﷺ في يده، ومعنى تَلَّه أي: وضعه، وهذا الغلام هو ابن عباس رضي الله عنه.

فانظر كيف حفظ رسول الله حق الغلام ولو كان في القدر، وانظر لهذا المجتمع المعافى الذي يتيح لهذا الغلام الحرية ويربيه عليها حتى أصبح قادراً أن يحتفظ بحقه مع كامل الأدب والرُّقي. هذه مجالس الأنبياء، مجالس الحقوق والحرية، والأدب والأخلاق.

عبادة الاتباع:

وكمال الحرية بكمال العبودية لله رب العالمين، ولم يصل بشر إلى مكان النبي محمد ﷺ في معراجِه، حيث سدرَة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرَة ما يغشى.

وفي هذا الكمال البشري الذي لا يتحصل لأحد غيره، وهو سيد الأحرار، تحرر من أهوائه، وتحرر من تعظيم الخلق، يصفه ربه بأجل وصف: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ولئن كان بعض الكفار يرى الحرية في التمرد على الأديان، فما ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتوهم طريقا للحرية أفضل من طريق العبودية لله. العبودية لله هي التي تجعل جميع المخلوقين يتصاغرون أمام الله، والله أكبر! ليس للحرية باب أكبر ولا أرحب من هذه الكلمة، إذا نطق بها الجنان ووافقه اللسان: «الله أكبر»!

إن الطرق الأخرى لا توصلهم للحرية، بل للتمرد والمراهقة والتزق

والفوضى والعبيية، أما الحرية فإنها لا تُنال بكمالها وجمالها إلا على طريق الأنبياء، فهم سادة الحرية، وهم أدرى بِشِعَابِها.

الحرية هي الانعتاق من العوائق لا من الحقائق، فالحرّ حين يلتزم بقانون العدل في حياته، فإنه لا يزيد إلا رفعة وكمالاً، وذلك الذي يتمرد على العدل ينتقص من حريته وكماله بقدر ما يتمرد، فالعدل من أجل الحقائق، والحرية بقدر ما تحارب العوائق، فإنها تحارب عن الحقائق وتفديها بالغالي والنفيس.

كان نوحٌ -عليه السلام- سيد الأحرار في زمانه، وتسامى عن خرافاتهم وأوثانهم، أما ابنه فحسب أن التمرد على دين أبيه حرية، وحسب أنه قادر على إبداع واختراع طريق للنجاة بعيداً عن طريق الأنبياء، وأبوه يدعوهُ ويناديه: ﴿يَبْنِئْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، وهو يصرّ على غيّه، ومراهقته وتمرده ﴿قَالَ سَتَدِينُنِي وَإِنَّ أَبِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ﴾ [هود: ٦١]، لكن الحقائق لا تتغير ولا تتبدل، وهي أقوى وأبقى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

في طريقي إلى الروضة الشريفة في المسجد النبوي، حيث كان المسجد في هدوئه وسكينته، هزني صديقي بهذه الكلمة: إذا تاه بك الطريق، فارجع إلى نقطة البداية !

أجل، هنا البداية، والهداية، وما ابتعد عنها أحد إلا ضلَّ وتاه، ولن ننجو من العوائق، ولن نصل إلى الحقائق إلا على هذا السبيل المين. هنا سفينة نوح، وباقي الأرض طوفانٌ .

وكمال الطاعة والاتباع لا تعني عدم السؤال والحوار، فإن الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمرون، حصل معهم سؤال وحوار مع رب العزة والجلال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وفي مجلس رسول الله ﷺ كان أصحابه آيةً في الطاعة والاتباع، ولم يمنعهم هذا من السؤال والحوار. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إياكم والجلوس في الطرقات»، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بُدَّ من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (متفق عليه).

عبادة الاجتماع:

الأمر بالاتباع مقرونٌ مع الأمر بالاجتماع: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وما أعظم القرآن !

كنتُ أنظر إلى واقع المتدينين وما عندهم من خلاف وافتراق، وأتوجع لهذا الواقع المؤلم، في الوقت الذي نرى فيه الأمم الأخرى تجتمع بعد افتراق، وتتجاوز خلافاتها الدينية، واللغوية، وصراعاتها التاريخية، حتى أضحووا أمة واحدة، يهابهم القريب والبعيد، ونحن هنا لا نجد انتخابات تحدث إلا صنعت انقسامًا واحترابًا جديدًا، ولا يستجدُّ أمر إلا افرقنا وتنازعنا بسببه، حتى أصبح اجتماع الكلمة أشبه بالوهم الذي لا يمكن تحقيقه، لولا ما نراه هناك رأي العين!

وربما قيل: هذا بسبب البعد عن الدين، وهذا حق؛ فإن ديننا يأمر بالاجتماع وينهى عن التنازع، ولكن ما بال الكفار اجتمعت كلمتهم، والمسلمون وفي مقدمتهم المتدينون، كل حزب بما لديهم فرحون؟!!

ومما لاحظته أن المتدين أبعد عن الاجتماع من غير المتدين! فإن المتدين

ينازعك ويفارقك ويحاربك باسم الدين، فإذا دعوته للاجتماع، كأنها تراوده عن دينه، وهو يكرر في نفسه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

وحين تدقق النظر تجد أن أقرب المتدينين للتنازع، هم المستسبون للسلفية، المهتمون باتباع الدليل، فلا يصلون وادياً إلا وجدت معهم خيراً كثيراً، وتنازعاً كبيراً!

هذه هي الحقيقة الصادمة كما أراها، ليست والله اتهاماً ولا تعبيراً، والاعتراف بالمشكلة هي الخطوة الأولى في طريق التصحيح والتدارك.

من المؤلم جداً أن ترى أن دعاة اتباع الدليل سببا في التنازع والافتراق، فترى الجالية المسلمة الصغيرة في بعض البلدان، لهم أكثر من عيد، ولا يستطيعون أن يجتمعوا على يوم واحد.

لا يمكن أن تكون المشكلة في اتباع الدليل، بل هو الشفاء والعافية.. ولكن أين المشكلة إذن؟!!

إن من عايش المشكلة، وتوجع منها، يستشعر عظمة القرآن حين قرن بين عبادة الاتباع، وعبادة الاجتماع: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّاهُ فَفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

إذن مشكلتنا أننا بذلنا جهوداً كبيرة في بيان الطريقة (لعبادة الاتباع)،

وكيف تبحث عن الدليل، وكيف تتحقق من صحته، وكيف ترجح، وكيف تصحح.. بينما لم نبذل جهودا مماثلة في بيان الطريقة (لعبادة الاجتماع)، وكيف تصنع حين تلتقي بقوم آخرين يرجحون ما لا ترجحه، ويصححون ما لا تصححه، ومتى تترك ترجيحك الخاص رعاية لحق الاجتماع، ومتى تترك الاجتماع رعاية لحق الاتباع.. الخ.

فالتنازع إذن ليس بسبب الاتباع، بل لتقصيرنا في فقه الاجتماع. إن غاية ما صنعوه وقالوه هو الحث على الاجتماع، دون أن يكون ذلك وفق منهج وآليات واضحة، تشبه المواعظ باتباع الدليل لو خلت عن تخريج العلماء القادرين على معرفة الدليل والتحقق من ثبوته.

ليتنا نتعلم من صلاة الجماعة، ونحن نمارس فيها فقه الاتباع مقرونا بفقه الاجتماع، ثم ما نلبث أن نغادر هذا الفقه حين نُسلم من صلاتنا! ألا يأتي المسبوق في صلاته، فيلحق بالإمام، ويزيد في صلاته ويتقص منها بسبب متابعته للجماعة = ما لو فعله منفردا لبطلت صلاته بإجماع العلماء؟!

مثال ذلك: لو أدرك المسبوق الجماعة في الركعة الثانية، فإن الإمام مع جماعته سيجلسون للتشهد الأول بعد ركعتهم الثانية، ويجلس معهم هذا المسبوق مع أنه لم يصل إلا ركعة واحدة، ولا يسوغ له غير ذلك. لو فعلها (المصلي المنفرد) ذاكرا عالما، فجلس للتشهد بعد ركعته الأولى؛ بطلت

صلاته باتفاق الفقهاء، ومع هذا فإنه يفعل حال الجماعة ما لا يجوز له فعله حال الانفراد، رعايةً لحق الاجتماع.

حينما ضعف هذا الفقه (فقه الاتباع وفقه الاجتماع) في العصور المتأخرة، وصل بهم الحال إلى افتراقهم في الجماعات، وأصبح في المسجد الحرام مقام ومحراب لكل مذهب !

ثم صُححت والحمد لله هذه الفُرقة والفرق في صلاة الجماعة، وبقيت في مناحي الحياة لم تُصَحَّح.

إن هذا الموضوع يمثل عقدة مركزية في حياتنا الإسلامية، ويستحق مزيداً من البحوث العلمية، التي تتجاوز الوعظ إلى تتبع الأسئلة المشكلة، وبناء النظرية والمنهج في فقه الاجتماع.

وبسبب غياب الرؤية الواضحة التي تنطلق من الكتاب والسنة أصبحنا نرى من يتعبد لله بالتنازع وهو عند نفسه يصر على الدليل ويتمسك بالراجع.

هل أصبح التنازع ديناً نتقرب به إلى ربنا؟! نعم، هو كذلك في مفاهيمنا الخاطئة، ونسمي ذلك بغير اسمه.

وأحسب أنه لو قيض الله لهذه العقدة، من يجمع تفاصيلها، ويبني

نظريتها، ويوضح منهجها، ويؤصل لها من الكتاب والسنة، فإن الأمة ستختصر باجتماعها طريقا طويلا زاده التفرق والتنازع شعنا وطولا. وربنا قادر سبحانه أن يُهَوِّن علينا سفرنا، وأن يَطْوِي عنا بُعدَه.

خطيئة الابتداع:

الابتداع زيادةٌ في الدين، وهو بابٌ من أبواب الضلالة، والحق يقال: أن جهود العلماء السابقين أثمرت كثيرا في تبصير المسلمين بخطورة البدعة، والحرص على العودة لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. هذه الجهود لا تكفي، ولا زالت الأمة بحاجة إلى نشر هذه المعاني وترسيخها من جهة، ولا زال معنى البدعة وضابطها وما يتعلق بها من أحكام بحاجة كذلك للبحث والمداينة.

وأريد أن أتجاوز هنا هذا المعنى للابتداع، إلى مطلق الزيادة في الدين، والقول على الله بغير علم، لاسيما ما يروج في أوساط طلبة العلم من المحاذير والمجافين للابتداع.

حين تقرأ سورة الأنعام، يلفت انتباهك التركيز على التشريع بغير دليل،

وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مَنَازَعَةِ اللَّهِ فِي أَحْكَامِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا دُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وذكر سبحانه ما يعتمدونه من أحكام وتفاصيل ما أنزل الله بها من سلطان، وفي سورة الشورى يقول الله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

حين يذكر الفقيه تفصيلاً لا دليل عليه من الكتاب والسنة، ما موقفنا من هذا التفصيل الزائد المنسوب للشريعة دون دليل؟

أما الفقيه فلعله اجتهد بها يعذره عند الله، ولعله إن أخطأ أصاب أجراً واحداً، ولكن ماذا عنا ونحن لا نرى حجة شرعية تبيح لنا التدين بهذا التفصيل؟

إن نسبة الحكم إلى الشريعة أمرٌ جليل، وما لم يكن معك حجة وبرهان فتريثٌ وتبيي، ألا ترى أن بعض القوم يُقدم على التحريم احتياطاً، وما علم أن الاحتياط هو في الخوف والوجل من القول على الله بغير علم! يسعه أن يمتنع عن الفعل إن ارتاب في جوازه، ولا يسعه أن يحكم بأن الله حرم هذا إلا بسلطان مبين.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

يُخطئ من يمرّ على هذه الآيات مروراً عابراً، دون أن يقشعرّ بدنه من أن يكون قد وقع في مثل ذلك بجهلٍ أو تفريط. يُخطئ من يظن أن ذلك خاص بالمشرّكين، وكأن المسلم محل له أن يقول على الله بغير علم. ومن يقرأ الفتاوى المعاصرة، ويستمع لكلام العامة والخاصة في المجالس، يتأكد لديه أن هذا الأمر الخطير في كتاب الله يحتاج إلى مراجعة في نفوسنا وتعليمنا ومواعظنا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «ولهذا كان ابتداء العبادات الباطلة، من الشرك ونحوه، هو الغالب على النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة، والمتصوفة. وابتداء التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة». [الفتاوى: (٨٩/١)]. وفي موطن آخر يقول: «وكثير من المتفقهة وأجناد الملوك وأتباع القضاة والعامة

المتبعة هؤلاء يشركون شرك الطاعة» [الفتاوى: (١/٩٩)].

إن انتسابنا للإسلام لا يعصمنا من أخطاء السابقين، بل يوجب علينا أن نكون قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسنا، وألا يمتنعنا الحب والتقدير من واجب التصحيح والتجديد، وردُّ القول لا يعني انتقاص قائله، واحترام القائل لا يكفي في قبول قوله، حتى يأتي بسلطان مبين؛ فنسبة الحكم لشريعة الله، والقول على الله محلُّ الحيطة والحذر. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

نسأل الله أن يحمي ألسنتنا من القول على الله بغير علم، وألا يجعلنا ممن يفترون على الله الكذب وهم لا يشعرون!



الوقففة التاسعة

مفاهيم

الإخلاص:

الإخلاص معنى شريف، يستعلي الإنسان فيه بمبادئه وأهدافه عن شهواته ودنياه، تنتصر فيه الروح وأشواقها، على الجسد وشهواته. والإخلاص لله تعالى هو الطريق الوحيد لقبول العمل، فلن يقبل الله طاعة في الآخرة إلا بالإخلاص، ومن أشرك في عمله تركه الله وشركه.

وأهمية الإخلاص لا تعني أن يتجرد الإنسان من ضروراته التي خلقه الله عليها، وما وُجد من تعارض بينهما، فإنه فهمٌ خاطئ للإخلاص، وليس الإخلاص المأمور به شرعاً، مثال ذلك: الذكر الحسن، فإن حبه فطرة مغروسة في النفس البشرية، لا يجوز أن تكون هي هدفه الذي يعمل من أجله، بل يعمل من أجل الله ورضوانه، ولا يمنع بعد ذلك أن يفرح بالذكر الحسن، وكان من دعاء إمام الموحدين، إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، يقول ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذا الدعاء: «واجعل لي في الناس ذكراً جميلاً وثناءً حسناً، باقياً فيمن يجيء من القرون بعدي»، فمن فهم أن الإخلاص يعني عدم الفرح بالذكر الحسن، وعدم الحرص عليه، والدعاء به، فقد فهم الإخلاص على نحوٍ مختلف عن فهم إبراهيم -عليه السلام- الذي تعلمنا التوحيد تأسيساً به، وبالأنبياء معه.

وفي سورة مريم يخبر تعالى أنه جعل له ولذريته لسان صدق في الآخرين:
﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

كذلك جاء في سورة الصافات، وربنا يذكر مَنته على عباده الأنبياء،
ويُغري عباده أن يسلكوا طريقهم؛ لينالوا جزاءهم الجميل، وعاقبتهم
الكريمة: ﴿وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ [الصافات: ١٠٨-١١١]. قال ابن
جرير -رحمه الله-: «يقول تعالى ذكره: وأبقينا عليه فيمن بعده إلى يوم
القيامة ثناءً حسناً».

وذكر مثل ذلك لغيره من الأنبياء، فالثناء الحسن، ولسان الصدق حُبّه
مغروس في النفس، وطريقه طاعة الله، وأن يقدم مرضاة الله على مرضاة خلقه.

ومما هو مغروس في النفس البشرية، حب المال والمغانم، وقد جاءت
النصوص الكثير في أهمية الإخلاص حال الجهاد، كما جاء في الحديث:
«يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل
يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: من قاتل
لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله» (متفق عليه)، فهل يُفهم من هذا
أن ينسلخ من بشريته، حتى يصبح المال والغنيمة أخذها وتركها سواء؟

وهل يستطيعه الإنسان ولو تكلف ذلك وطلبه؟

سادة المخلصين من هذه الأمة اختلفوا بعد بدر على الغنيمة، ومن انسلخ من بشريته في حب المال، لن يحرص عليه، فضلاً عن الاختلاف عليه: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَنْتَوُا اللَّهُ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقد ذكر الله في سورة الفتح تزكية الإخلاص في قلوبهم، مع ما كانوا يرجونه من الغنيمة: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ١٨-٢٠]. قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فعلم ربك يا محمد ما في قلوب المؤمنين من أصحابك إذ يبايعونك تحت الشجرة، من صدق النية، والوفاء بما يبايعونك عليه، والصبر معك.. وقوله: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يقول: وعوّضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها فتحاً قريباً»، فيبقى مع الإخلاص لله في الجهاد حبّ بشري للغنيمة والمال، لا يُشترط في الإخلاص التطهر منه، إنما يكون تابِعاً لا متبوعاً.

ومثل ذلك يقال في باقي الشهوات، مثل المنصب، والنساء، والأولاد، وغيرها، ولن تجد شهوة إلا وهي مخلوقة لبقاء الحياة أو

عمارتها، ولا يمكن أن تأتي الشريعة لاستئصالها بالكلية، إلا على وجه الرهبانية المبتدعة التي لم يكتبها الله على عباده، فمن استرسل مع الشهوات غوى، ومن استأصلها بالكلية غلا، ومن هذبها وزكاها رشد واهتدى.



الحزن:

يفهم بعض الناس أن الحزن فرغُ الإيمان بالله، واليوم الآخر، وحسابه وعذابه، وأن قسيم الحزن هو الاستهتار وعدم المبالاة، وقد يُفاجأ أحدهم حين يعلم أن الحزن لم يأمر به الله ولا رسوله ﷺ، بل نهى عنه في مواطن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين».

فلا ينبغي إذن أن نستدعي الحزن، ولو كان ذلك بسبب المنكرات، والحرص والشفقة عليهم.

لا يغلبنك على السكينة والطمأنينة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَلَا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ

الْهَزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿[يونس: ٦٥]﴾. حتى المصائب التي
تحل بالمسلمين لا ينبغي أن تستدعي لأنفسنا الأحزان، بل صبراً ويقين،
وإيماناً واطمئنان، مع العمل النافع بقدر الطاقة والإمكان: ﴿وَلَا تَهِنُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إن النهي عن الحزن لا يعني القدرة على الامتناع عنه بالكلية، فإنه يهجم
على النفس إذا توافرت أسبابه، وللطبيعة البشرية ضروراتها، وقد قال الله
لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].. ومع هذا: ﴿وَلَقَدْ
نَعَّمْنَا أَنْتَكَ يَصِيقُ صَدْرُكَ يَمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

هذه طبيعة بشرية يُدافعها المؤمن بالتسبيح والسجود والعبادة
والصبر والإيمان، كما يُدافع المرض بالصبر والطب، أما استقبال الحزن
والحفاظ عليه كما لو كان طاعة وقربة، فعملٌ غير صالح، وربما وصل
الحال بنا إلى استدعاء الحزن وتهيجه في كل فرصة سانحة.

ورأيت بعضهم يتخرج من البهجة والرضا، وكأنَّ ممارسة الحياة من
شرطها أن تخلو من المنكرات والمصائب. العبرة في مصائب المسلمين بما
تقدمه لهم من نفع ببالك ودعائك وعملك، أما إضعاف القلب والهمة
بالأحزان، فلا ينبغي طلب ذلك وتكلفه، وينبغي أن يكون قلبُ المؤمن
هو أكثر القلوب رضا وسكينة وطمأنينة.



البراءة من الكافرين:

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ﴾ [

الروم: ٤-٥].

لقد سمى الله هذا النصر: نصر الله؛ إكرامًا وتشريفًا، وأخبر بأن هذا النصر سيفرح به عباده المؤمنون.

إن هذا النصر لقوم كافرين! ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

[مريم: ٨٨-٩٢].

ونصرهم في تلك المعركة هو نصر الله، ويومئذ يفرح المؤمنون، فإذا كان فهمك للبراءة من الكافرين يحجبك عن هذا الفرح، فراجع فهمك؛ فإنه على خلاف القرآن! حين يكون الروم (أهل الكتاب) مقابل فارس (أهل الوثنية)، فإن المؤمن لا يقف منهم على مسافة واحدة من البراءة، بل هو مع انتصار الروم ولو كانوا كفارًا، ولو كان سيقاتلهم في غزوة تبوك وما بعدها.

وفي كل معركة وحادثة، ينبغي أن يكون المؤمن مع الجانب الأقرب للحق والعدل، ولو كان كافراً، وتعاطفُ المؤمن معه في تلك الحادثة لا تعني تزكيته بالجملة.

وجدتُ بعضهم يُشنع على من يقف مع الجانب الأقرب للحق، إذا رآه بعد ذلك يخاصمه ويعاديه، ويعدُّ ذلك ضرباً من التناقض، ودليلاً على قصر النظر وقلة الفقه، ولو تفكر في موقف المؤمنين من الروم حين قاتلوا فارس، وموقفهم من الروم بعد ذلك، لعلم أن البراءة من الكافرين لا تعني الثبات المطلق في صورتها ونتيجتها، فبراءة من مشركين وقفوا مع الروم ضد فارس، وبراءة من مشركين وقفوا ضد الروم في تبوك، وتغيُّر الحال دليل فقه وبصيرة، وليس قصراً في نظر، أو رقة في الدين.



حكماء صهيون:

قال الله تعالى: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

يصل بنا الحال ونحن نسترسل في التحليل، وتوصيف العدو وقوته وإمكاناته، إلى أن نعطيه منزلةً فوق منزلة البشر، تضاهي خلق الله!

فكل صغيرة وكبيرة هي مرصودة في أجهزة القوم، وكل تصرف هو من تخطيطهم ومؤامراتهم، ثم نعد ذلك حدقا في الرؤية، وعمقا في التحليل. الأمر يسير إذا كان قصارى أمره خطأ في تقدير، وإسراف في تحليل، لكن يكون خطرا محققا حين يقدح ذلك في تعظيم الرب وتوحيده، وحين نتعامل مع الصهاينة أو الغرب أو الشرق، كما لو كانوا يضاهئون الله في علمه وقوته وقدرته وخلقه.

إن من يبالغ في قوة عدوه، يقدح في دينه، ويقضي على نفسه ومستقبله بالهزيمة والتبعية، وما أصابنا الضعف والهوان لقوة عدونا، بل لضعفنا وتنازعنا وبعдна عن ديننا: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن ما كانت تصنعه الوثنية الأولى مع الجن، أصبح اليوم يصنعه بعضنا مع الصهاينة والغرب والشرق باسم العلم والعمق والتحليل: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُعَذِّبُونَ رِجَالَ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. قال الطبري: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي إثما، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة.

يجب أن نضع للتحليل حدا لا يتجاوزه، ولتقدير العدو وقوته قدرا لا يتعداه، وأن نحاذر من نسبة شيء من خلق الله وحده إلى غير الله، وهذا الإيمان والتوحيد هو الذي ينير بصائرنا لرؤية الفرص الربانية، ويقوي عزائمنا على نهضة الأمة من جديد.



مفهوم التدين:

قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: ١-٣].

في دين الله ارتبط الإحسان في عبادة الله مع الإحسان لعباد الله، والتقصير في نفع الخلق مع التقصير في عبادة الخالق، ومن قَصَرَ تدينه على زيادة التنسك والعبادة مع الإعراض عن الخلق وحوادثهم، فإنه سلك سبيلاً في التدين خاطئ.

والصلاة تعبد وتنسك، والزكاة صلة وإحسان، وقيام الليل؛ صلاة وقراءة وتهجدًا مقرون بنفع الخلق والإنفاق عليهم: ﴿نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

إن هذا طريق الجنة والجَزَاءِ الأوفى، أما النار فلها طريق آخر يجمع بين التقصير في العبادة، والإعراض عن نفع العباد: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾﴾ قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المدثر: ٤٢-٤٤].

ذات يوم.. عَرَضَتْ حاجةٌ لبعض القوم من المساكين والضعفاء، تحتاج

إلى مساعدة ومؤازرة، ومن عجب أن يترك بعض الصالحين مساعدتهم،
ويتنقدوا الاشتغال بذلك باعتباره اشتغالا بأمور الدنيا عن أمور الدين!
والعقيدة أولاً لو كانوا يعلمون -هكذا يقولون-!

هذا المفهوم في الدين يحتاج إلى تصحيح بما يوافق دين الله، في كتابه،
وسنة رسوله ﷺ.

إن شخصية الموحد والداعية إلى التوحيد هي نفسها التي تطعم المسكين،
وتكفل اليتيم، وتصل الرحم، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.
وفي حديث ضيف إبراهيم المكرميين، صورة مشرقة لإمام الموحدين،
الذي تمتاز في شخصيته عبادة الله مع الإحسان لعباد الله.



الغلو:

قال الله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

أسائل نفسي يوم الجمعة، والمسلم مأمور بكثرة الصلاة والسلام على
رسول الله ﷺ.. لو أجريت معاييرك في سدِّ الذرائع عن الشرك، وحماية
جناب التوحيد، هل كنت ستفهم (كثرة) الصلاة والسلام على رسول

الله؟ أم كنت ستراها ذريعة قريبة للغلو في رسول الله بأبي هو وأمي ﷺ،
وقد نهانا عن الغلو في محبته وإطرائه؟!

إن اختبار (المعايير)، والتأكد من شرعيتها وصحتها مهمٌ للغاية، فإن
المعيار الخاطئ إمامٌ على غير هُدى؛ حيث يعتمد صاحبه في الحكم على
الأشياء بالحل والحرمة، والصحة والخطأ، ولن تستطيع أن تختبر (المعيار)
حتى تُجربه على الفروع المحكوم عليها في الكتاب والسنة، فإن وافق
حكمهما صح المعيار، وإن خالفهما انكشف خطؤه.

أما معيار (منع الغلو وحماية جناب التوحيد)، فلو أجرئته على فهمي
السابق، لاستشكلت الأمر بكثرة الصلاة والسلام على رسول الله، وهذا
يعني أن هذا الفهم يجب أن يصحح بما يوافق أحكام الكتاب والسنة،
وإلا نَجِيز بعض الأحكام للنص دون القياس، وتلك قصة أخرى.

المهم هنا أن هذا السؤال قد أبان لي أن الغلو مذموم، ولو كان في محاربة
الغلو!

بئس هذا الغلو.. يضلُّ قومٌ (غلوًا) في الصالحين، ويضلُّ آخرون (غلوًا) في
حماية جناب التوحيد، وربنا يقول: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

ومما يثير التساؤل والمراجعة أن نأتي على أمور كانت باقية طيلة هذه

القرون، وتعاقب عليها المصلحون دون أن يُزِيلوها، رغم ما وقر في قلوبهم من حب التوحيد وحماية جنبابه، ثم تأتي نحن بعد ذلك ونخالفهم فيها منعاً للغلو وسداً للذريعة.. أو ما يسعنا ما وسعهم؟!



الجمال والزينة:

الزينة من خلق الله: قال الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّهَا لِلنَّظِيرِ﴾ [الحجر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

والزينة من شرع الله، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ مَا دَمَ حُدُوْا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [الأعراف: ٣١-٣٢].

ولأن المسرفين والفساق أسرفوا في طلب الزينة والحرص عليها؛ أصبح بعض المسلمين يقف موقفاً متباعداً عنها، وكأنها منكراً محرم.

علاقة المسلم بالزينة لا ينبغي أن تفسدها الممارسة الخاطئة من الآخرين. الزينة ليست هي الغاية والهدف الأسمى في حياة المسلم،

ولكن ليست هي من المعاصي التي يستنكف منها المسلم، وكأن
الفوضى وعدم الجمال أقرب لروح الشريعة.

في زيارةٍ لمكتبٍ دعوي في الأحساء، أعجبتني كلمة قالها مديره وهو
يشرح حرصهم على جوانب الجمال والنظام، يقول: لقد آمنت بلبقيس
عند سليمان بالإبهار، ولذلك ينبغي أن نعتني في دعوتنا بالفن والجمال
والتنظيم.

لا يجوز أن نستنكف من الزينة وهي من خلق الله، كما نص القرآن
على أن السماء الدنيا زينٌها للناظرين، كذلك هي من شرع الله: ﴿حُدُوا
زِينَتَكُمْ﴾. فهذه المعاني الفطرية من حب النظافة والجمال والزينة لا تأتي
الشريعة بتحريمها، فإن الفطرة السوية من خلق الله، والشريعة تُهذِّب
ذلك وتركيه.

إن بعض العيون الكافرة أدمنت على الزينة، ومن يدعو إلى الله لا ينبغي
أن يحجب هذه العيون عن الإسلام بالتفريط في جوانب الجمال والزينة
المباحة، ومعاني الإسلام الخالدة تستحق منا أن نعرضها في الثوب الأجل
والأزين. الأذان ينبغي أن نختار له الصوت الأندى، والقرآن ينبغي أن
نقرأه بأجمل أصواتنا.

في مشاعر الحج تأسف لمناظر الفوضى والقذارة، وتخرج من هذا
المسلم الجديد الذي جاء من بلاد النظافة والجمال والنظام، وقطع طريقه

الطويل يريد مكة عاصمة الإسلام، فيجد نفسه في انفصام حاد بين اختياره لأجل الأديان، وما يراه من مظاهر أهله في شعيرة الحج.

لقد ارتبط الحج بهذه الفوضى حتى فقدنا الرغبة في التصحيح والتطوير، وأظن أننا سنجد من يعترض تدئيًا على أي تطوير يخفف من هذه الحال، ويرى أن الحج لابد له من شعث وتعب، وفرق كبير بين الصبر على شعث الطريق، وبين طلبه والحفاظ عليه.

الوضوء على المكاره أجزء وقربة، ولكن طلب المكاره والحفاظ عليها من أجل الوضوء فيها بدعة منكرة، ورسولنا ﷺ كان يتعوذ من وعشاء السفر، وكآبة المنظر.



الاحتجاج بالقدر:

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

كما يتعامل الإنسان مع قدر الموت، ينبغي أن يتعامل مع باقي الأقدار، فهو يؤمن أن الموت قدر، ومع ذلك يحرص على مدافعة

أسبابه من الأمراض والأخطار، فتجد في خِلقة الإنسان ما يدفعه لطلب الحياة والفرار من الموت، والشرعة جاءت بتحريم الانتحار وتجريمه، وأصل الفرار من الموت مفطور عليه الخلق، ومأمور به في الشرع، والمذموم من ذلك ما وصل إلى حد المبالغة.

يحتج بالقدر بعض الضَّلال في حال الشهوة والشبهة، ويتخذون من الإيمان بالقدر عذرًا في مقارفة بعض الذنوب وترك بعض الواجبات، حتى يُخَيَّل للإنسان أن الإيمان بالقدر سببٌ في هوانهم أمام الغزاة، واسترسالهم في الشهوات، وما كان للقدر -الذي هو من دين الله- أن يكون سببًا في هوانٍ أو ضلال، بل هو مفهوم خاطئ في التعامل مع القدر، ولو أنهم تعاملوا مع الأقدار المذكورة كما يتعاملون مع قدر الموت، ما ضلوا ولا هانوا.

لقد آمن أصحاب رسول الله ﷺ بالقدر، فحملهم هذا الإيمان على الشجاعة والإنفاق ومكارم الأخلاق :

أَيُّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفَرَّ يَوْمٌ لَا قُدْرَ أَوْ يَوْمٌ قُدِرَ
يَوْمٌ لَا قُدْرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمَنِ الْمَقْدُورُ لَا يُنْجِي الْحَذَرُ

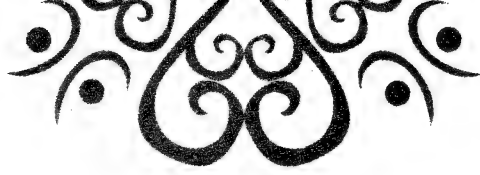
وهنا ضابط في كل المفاهيم، فإنك لن تجد مفهومًا يُضعف المهمة، ويُورث الهوان، إلا وهو مفهوم خاطئ ولو نسب إلى الشريعة، وإن لم

تهتد لسبب خطئه على وجه التفصيل، فإن هذا المآل الفاسد سبب كاف على سبيل الإجمال.

الشرية ومعانيها لا تزيد الإنسان إلا زكاء وإحساناً، وما خالف ذلك فإنه فهمٌ على غير سَنَنِ الشريعة، والإشكال يكون ممن يحترم هذا المفهوم لنسبته للشرية رغم انحرافه، ويكون من آخرين يلحظون هذا الفساد فينكرون المفهوم بالكلية، والهداية في اكتشاف وجه الخطأ والانحراف، وتنقية المعاني الشرعية الصحيحة منه.



وللتفكر والتفكير بقية..
تأتيكم في الأجزاء القادمة بإذن الله
وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً



فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة:
٧	وقفاتُ تفكّر:
٧	الوقفة الأولى: في نظام التفكير:
٨	بين الأفكار والتفكير:
٩	صراع العقل والنقل:

الموضوع	رقم الصفحة
الحق لا يتعارض:	١١
لولا يأتون عليهم بسلطان بين:	١٢
للضلال بابان:	١٣
العقل المتناقض:	١٤
يستبدلون الهوى بنظام التفكير:	١٥
التفكير والهوى: غالب ومغلوب:	١٦
احترام الدليل:	١٧
أولم يهد لهم:	١٨
إنصاف الرأي الآخر:	٢٠
العلة لازم المعرفة:	٢١
سلطة التفكير الجمعي:	٢٣
الوقف الثانية: في الدعوة إلى الله:	٢٥
وداعيا إلى الله:	٢٦
القلب لا يمتلئ بشيء إلا فاض به على من حوله	٢٧
صرفهم إليه:	٢٨
قلبه خلّو من اليأس:	٢٩

الموضوع	رقم الصفحة
في أسوأ البيوت مسارب للنور:	٣٠
يأليت قومي يعلمون (رحمة في قلبه)	٣١
مسجد الحلي	٣٢
بلسان قومه	٣٤
يبلغُ الناس بكلّ سعيه	٣٥
وما آمن معه إلا قليل	٣٨
وإن يك كاذبا.. وإن يك صادقا	٣٩
وجادلهم بالتّي هي أحسن	٤٠
تعالق القول والعمل	٤١
أصدقت أم كنت من الكاذبين	٤٢
واجنّبي وبنّي أن نعبد الأصنام	٤٣
ولما يدخل الإيمان في قلوبكم	٤٤
واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	٤٥
إن ربك هو يفصل بينهم	٤٥
العبرة في الدعوة ب(النية) لا ب(النتيجة)	٤٧

رقم الصفحة	الموضوع
٤٨	اصبروا وصابروا
٤٩	الوقفة الثالثة: في الإصلاح
٥٠	أولا: شرف الإصلاح وضرورته
٥٤	ثانيا: وللإصلاح أعداء وخصوم
٥٨	ثالثا: ولأعداء الإصلاح وسائلهم في العداوة
٦١	رابعا: وللإصلاح رجاله وأخلاقه
٦٦	خامسا: وللإصلاح طرائقه وأساليبه
٧٧	الوقفة الرابعة: اجتماع الكلمة: ضرورة الخلاف وضرر التنازع
٧٨	الخلاف شيء.. والتنازع شيء آخر
٨٠	للخلاف قوانين تديره
٨٢	التنوع ضرورة
٨٣	الأجر والأجران
٨٥	هو سماكم المسلمين من قبل
٨٦	ضرر التنازع
٨٨	سبب الاجتماع

رقم الصفحة	الموضوع
٩١	الوقفة الخامسة: في النقد
٩٢	نعمة الندم
٩٣	النقد والتصحيح الذاتي
٩٥	التبرير والمكابرة
٩٦	المدمن على النقد
٩٨	النقد غير الموضوعي
٩٩	اختبار النقد
١٠١	الوقفة السادسة: في الحقوق
١٠٢	الحقوق والأخلاق فوق الخلاف
١٠٣	ليس علينا في الأميين سبيل
١٠٥	أحطت بما لم تحط به
١٠٩	الوقفة السابعة: في العدل
١١٠	العدل في الحكم والإجراءات
١١٢	ما خطبك يا سامريّ؟
١١٣	العاقل خصيم نفسه
١١٦	ظلموا أنفسهم

رقم الصفحة	الموضوع
١١٨	للمظلوم سلطان ربّانيّ
١٢٠	يوم الدين
١٢٢	ويلٌ للمطففين
١٢٤	بعض المساواة ظلم
١٢٦	وبعض الحياد ظلم
١٢٩	العدل والاعتدال
١٣١	العدل فوق مشاعر الحب والكراهية
١٣٥	العدل والإحسان
١٣٩	الوقف الثامنة: في الحرية
١٤٠	الحرية والاتباع
١٤٢	الحرية
١٤٨	عبادة الاتّباع
١٥١	عبادة الاجتماع
١٥٥	خطيئة الابتداع
١٥٩	الوقف التاسعة: مفاهيم
١٦٠	الإخلاص

رقم الصفحة	الموضوع
١٦٣	الحزن
١٦٥	البراءة من الكافرين
١٦٦	حكماء صهيون
١٦٨	مفهوم التدين
١٦٩	الغلو
١٧١	الجمال والزينة
١٧٣	الاحتجاج بالقدر
١٧٧	الفهرس



لعلهم سكروا

قراءةٌ تفكريةٌ في آيات الكتاب العزيز

هذا الكتاب هو الجزء الأول من مشروع «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» وستلحقه أجزاء أخرى - بإذن الله-. وهو قراءةٌ تفكريةٌ في آيات القرآن الكريم، متعلقة بالتفكير والمنهج، والدعوة والإصلاح، وموضوعات أخرى. وكم في هذا القرآن من المعاني والآفاق والأسرار لا يصل إليها المؤمن بغير التفكير، ومهما تكاثرت وتتابعت كتب التفسير، فإنه لن يُحيط المفسر المحدود في علمه وعقله بالنص الرباني الخالد.



SR 10



9 786030 147595

دار وجوه للنشر والتوزيع

Wajooh Publishing & Distribution House

www.wojoooh.com



المملكة العربية السعودية - الرياض

الهاتف: 4562410 الفاكس: 4561675

للتواصل والنشر:

info@wojoooh.com

www.facebook.com /wojoooh

@wojoooh1